حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد السابع . شوال ١٤٣٨هـ / تموز ٢٠١٧م

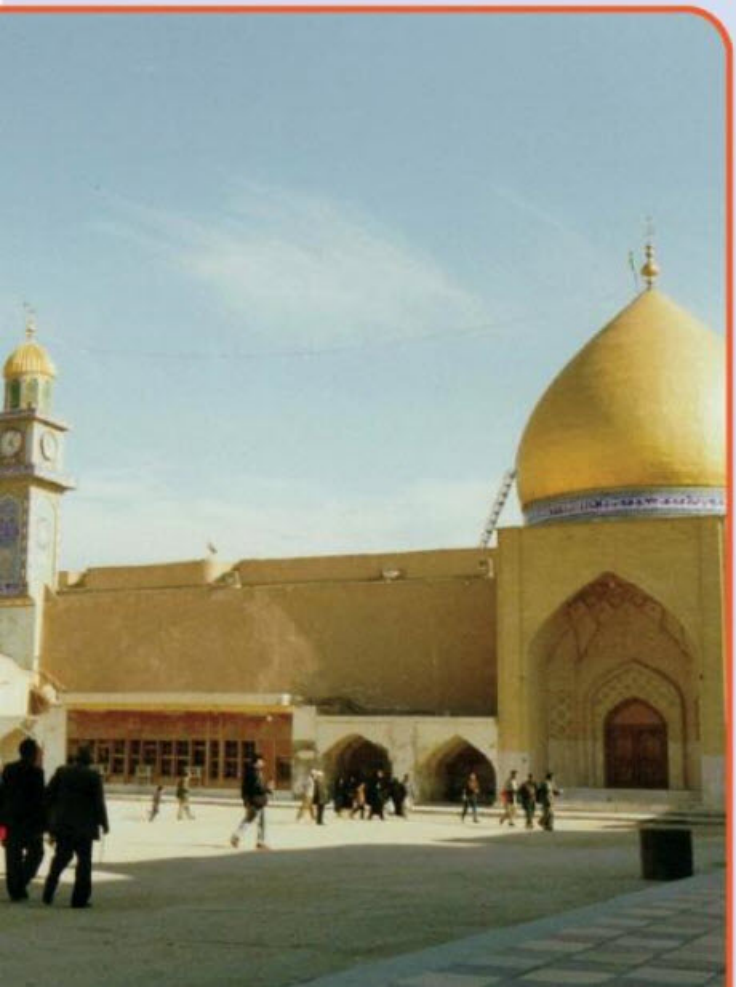

٧

دار الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد محمد مجيد الموسوي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الزّهد في الكوفة

الدّكتور كامل مصطفى الشّيبي

تمصير الكوفة وعناصرها:

كانت الكوفة معسكراً للجيش العربي الّذي فتح فارس وصارت مدينة تسكن سنة ٦٣٨/١٧ بأمر عمر بن الخطاب، وبنيت بالقرب من بابل[١] والحيرة[٢]، فبدت وكأنها مركز لموجة سامية جديدة خرجت من شبه الجزيرة العربية وصارت استمراراً للحضارات العراقية القديمة، والواقع أنّ الكوفة جمعت بين طابعي حضارتين: حضارة آشور الحربية متمثلة في استمرار الثّورات فيها حتّى انطفأت جذوتها بانتقال الحكم إلى العبّاسيين، وحضارة بابل العلمية الّتي أخرجت للعالم أولى الشّرائع في التّاريخ، وكانت الكوفة -إلى ذلك- «وارثة الحيرة عاصمة اللخميين الّتي كانت مجتمعاً للقوافل وكانت تربط أعالي آسيا بأقاصي اليمن»[٣].

أمّا الكوفيون فكانوا من عنصرين: أغلبية عربية جلهم يمانيون وأقلية فارسية هم الحمراء الّذين انضموا إلى الجيش العربي في القادسية وسكنوا الكوفة مع العرب[٤] وكانوا حلفاء لقبيلة عبد القيس الشّيعية[٥] ومعهم جماعة من مسيحيي اليمن من أهل نجران الّذين أخرجهم عمر من مواطنهم «وأنزلهم ناحية الكوفة» «ابن سعد، الطّبقات، بيروت ٢٨٣/٣»، وكان من حسن حظ الكوفة أنّ كلا العنصرين، اللذين حطا فيها الرّحال، كانا على جانب من الحضارة كبير إذا قيس بمستوى العرب الحضاري، فقد كانت مذحج وحمير وهمدان قبائل متحضرة حقاً من سكان المدن والقرى اليمانية[٦]، يضاف إليهم عناصر نصف متحضرة ككندة وبجيلة وكلّ أولئك من اليمن ونحن نعرف درجة العنصر الفارسي من الحضارة، وقد أثبت العنصر اليماني قدرته على تأسيس الثّقافة الإسلامية وعلى التّمدن والتّحضر، وكان اليمانيون أهل تصور وابتكار وكانت فيهم المادة الموجدة لهذين المظهرين الحضاريين[٧] فكان ما ظهر من ثقافة وحضارة في الكوفة أصيلاً له طابع الكوفة الخاص، ويؤكد ماسينيون أنّ الكوفة هي السّبب في ثقافة البصرة الّتي لم تتصف بالأصالة[٨]، ويعدد ماسينيون أوجه الأصالة في حضارة الكوفة فيخبرنا بأنّها طورت الخط الكوفي المأخوذ من المصاحف، وأنّها أنتجت نهج البلاغة: مجموعة خطب الإمام علي، وطورت الشّعر القديم، وأوجدت الأحاديث والسّير في حب الله، ويذكر «أنّها كانت موطن البهاليل [جمع بهلول وهو المدعي الجنون] وموطن الصّوفية الّذين ذكر الغزالي مكانتهم وأهميتهم، وكانت في السّياسة تهدف إلى العدل الاجتماعي وكانت في الحقوق تلتزم الاجتهاد، وهي مهد الفقهاء والمشرعين الأقدمين، وكانت في النّحو تبحث عن أوضاع الشّواذ»[٩]، «الّتي تدل على فهم لقواعد النّحو وفصاحة عميقة بحيث طرحت البحث في النّحو العادي وتعمقته ببحثها عن الشّواذ فيه».

(١) تاريخ العرب ٣٠٩/٢.

(٢) انظر ديوان الشّريف الرّضي «بيروت ١٣١٠هـ ص٨٨٥» حيث جاء في مقدمة قصيدة له أنّه قالها «وقد خرج لزيارة مشهد مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.. وعرج على الحيرة فطافها ونظر عجيب آثارها وبنائها ورأى الظّباء ترتع في أعراصها..».

(٣) خطط الكوفة ص٦.

(٤) فتوح البلدان ص٢٨٠.

(٥) خطط الكوفة ص١٠.

(٦) خطط الكوفة ص١٢.

(٧) خطط الكوفة ص١٢.

(٨) خطط الكوفة ص١٢.

(٩) أيضاً ص١٢- ١٣ «مختصراً».

وهكذا تتبين الميادين الّتي عكستها حضارة اليمن في الكوفة فأثبتت أصالتها واستقلالها عن الثّقافات والمعارف الّتي شاركت في بناء هذه الحضارة، وإذا عرفنا أنّ الكوفة كانت مجتمعاً تختلط فيه الدّيانات القديمة من نصرانية ويهودية ومانديّة وزرادشتية ومزدكية وأنّ الكوفيين كانوا يألفون النّصارى واليهود وكان منهم قوم في جيش علي[١] وأنّ العنصر الفارسي لم يؤثر في صبغتها العربية الأدبية[٢] أدركنا إلى أي مدى كانت الكوفة أصيلة في حضارتها، ويتضح من ذلك أنّ الكوفة كانت بيئة أصالة لا بيئة تقليد وانعكاس مباشر، كما كان الأمر في البصرة وقد قيل لهذا: «إنّ آداب اللغة العربية ميراث الكوفة»[٣].

وقد كان الكوفيون -وأغلبيتهم يمانية- يجمعون إلى هذا الاستعداد الحضاري عاطفة منبعثة من جبلة العنصر اليماني الّتي يخبرنا أبو الفرج أنّه كان يتصف برقته العاطفية[٤]، ويروي البخاري أنّ النّبي (ﷺ) قال فيهم: «أتاكم أهل من اليمن- هم أرق النّاس أفئدة وألين قلوباً، الإيمان يمان والحكمة يمانية»[٥].

وهكذا جمع هذا الحديث صفتي العنصر اليماني: الحكمة والإيمان أي الحضارة والعاطفة.

وقد كانت هذه العاطفة السّبب الأوّل في تشيع الكوفة، فقد كانت بداية اتصال اليمانيين بعلي حين عجز خالد بن الوليد عن فتح اليمن فأرسل إليهم النّبي (ﷺ) علياً فبث الإسلام فيهم دون قتال وكانت همدان أولى القبائل إسلاماً وكان ذلك سنة ٦٣٠/٩- ٣١[٦]، ولهذا لم يكن غريباً أن تستجيب الكوفة لدعوة علي حين طلب إلى الكوفيين الانضمام إليه ضد طلحة والزّبير، وقد قال قائلهم يومئذ رداً على كتاب علي الّذي ورد فيه: «ولعمري ما إياي تجيبون، ما تجيبون إلا الله»[٧]، وقال قائل اليمن: «والله لو لم يستنصرنا لنصرناه سمعاً وطاعة»[٨]، وكان لهذه الاستجابة السّريعة صلة بالإيمان المقترن بالعاطفة، ويجب أن نشير أنّ شيعيين هما سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان هما اللذان اختارا بقعة الكوفة[٩]، وقد مر بنا أنّ حضارة اليمن تتركز في الثّقافات الّتي صدرت عن التّشيع مما رأينا فيه وجهاً واحداً هو الفرق الشّيعية وسنرى في هذا الفصل وجهاً ثانياً من الحضارة الكوفية هو الزّهد وسيتبين لنا أنّه قد صدر عن التّشيع أيضاً.

شايعت الكوفة علياً بعد انتصاره في وقعة الجمل وأرسل الكوفيون إليه يستدعونه إلى مصرهم[١٠] وكان علي مطمح أنظار الثّائرين على عثمان كلهم وقد كلفت هذه المناصرة الكوفة الكثير من التّضحيات، فقد كان الإمام علي طرازاً من الرجال غريباً نادراً لقد نزل الكوفة بعد أن تطورت عقلية المسلمين وتفتحت أذهانهم للمادة ورأوا كيف يعيش الولاة الأمويون الّذين عينهم عثمان ورأوا تطور الإسلام من الزّهد والاكتفاء بالقليل إلى البذخ الّذي أظهره عثمان وأقاربه، فثاروا عليه بعد أن صرح عامله عليهم «أنّ السّواد بستان لقريش»[١١] ويعني بها بني أمية.

وقد انتصرت الثّورة واستطاعت أن تنفذ مشيئتها بانتخاب علي، ونصرت الكوفة علياً ضد خصومه، وكانت تتوقع الغنم المادي من الأسلاب والغنائم والغنم المعنوي الّذي يتمثل في انتقال مركز الإسلام إليها، أمّا الغنم فقد انقلب غرماً لأنّ الغنائم قد حرَّمها علي في حروبه على اعتبار أنّ المسلم لا يسلب المسلم، وأمّا الغرم فقد جاء من أنّهم كانوا يقتلون إخوانهم وأرحامهم وكثيراً ما روت كتب التّاريخ أنّ ابناً كان يقاتل أباه وابن عم ينحر ابن عمّه، وهكذا كلف الإمام علي الكوفيين ما لم يكلف النّبي المسلمين الأولين فكانت هذه بداية لظهور الزّهد في الكوفة، لقد هال الكوفيين كثرة القتلى في الجمل ثمّ صفين ثمّ النّهروان، وتعبوا من القتال الموجه إلى مثل علي ليس النّفع إحدى نتائجه، فتخاذلوا وتواكلوا وفتروا عن الاستمرار في القتال الّذي لا نهاية له، ولم يتضح عجز الكوفيين عن الاستمرار في القتال إلا بعد قتل الحسين حين أدركوا أنّهم قد انتهوا، ولم يكن يدور في خلدهم أنّهم قد بلغوا هذه الدّرجة من الخور والوهن وأدركوا مع هذه الحقيقة حقيقة أخرى هالتهم، تلك هي أنّهم قد فرطوا في حق عقيدتهم تفريطاً عظيماً، وهنا بدأت عوامل الزّهد تزحف على الكوفة، ويحسن هنا أن ورد رأي الدّكتور علي الوردي الّذي علل سرعة تقلب أهل الكوفة فرأى أنّ العراقي «يفكر بمبادئ لا يستطيع تطبيقها ويدعو إلى أهداف لا يقدر على الوصول إليها، ولذا تجده يقول للزعماء: انهضوا

(١) حركات الشّيعة المتطرفين ص١٨.
(٢) تاريخ الكوفة ص١٣٦.
(٣) تاريخ الكوفة ص١٢٦.
(٤) الأغاني ١٦٣/٢.
(٥) صحيح البخاري ٦٨/٣.
(٦) العبر.
(٧) الإمامة والسّياسة ص١٠٩.
(٨) الإمامة والسّياسة ص١٠٩.
(٩) العبر «بيروت ١٩٥٦» ٩٥٩/٢.

(١٠) وقال شاعرهم:
أبلـــــغ أميـــــر المـــــؤمنين أ
خـــــا العـــــراق إذا أتينـــــا
أنّ العـــــراق وأهلـــــه
سَـــــلْمٌ إليـــــك فَهيـــــتَ هينـــــا
«شرح المفصل لابن يعيش، ٣٢/٤»، وكان العراقيون قبل من أنصار طلحة الّذي كانت له أرض واسعة يزرعها هناك كما مرّ، وهيت هيناً: بمعنى أقبل سريعاً.
(١١) الطّبري، ليدن، ٩١٥/١، أنساب الأشراف للبلاذري، القدس ١٩٣٦، ٤٠/٥.

فإنّي معكم، ثمّ إذا نهضوا وجد في نهضتهم مخافة فقبع في بيته يشكو من تصاريف الزّمان»[1]، وبذلك يتضح أنّ طاقة الكوفي المادية ليست مسايرة لطاقته الرّوحية والعاطفية ولهذا وجدنا الحياة في الكوفة تتخذ ثلاثة أنماط تدور كلّها حول المعارضة وحول التّشيع، النّمط الأوّل يمثله قوم ثبتوا على التّشيع وجعلوا يؤيدون كلّ حركة شيعية ويشجعون الأئمّة والثّائرين على الخروج ويدخل في هذه الفئة أولئك الذين جعلوا يجمعون حولهم الأتباع ويشققون الأفكار الشّيعية ليؤلفوا لهم فرقاً ترتكز على عقائد شيعية، والنّمط الثّاني ينعكس من قوم اتخذوا السّيف أداة للمعارضة وهم الخوارج وانضم إليهم كلّ شيعي لم يطق صبراً على حياة الذّل الّذي نزل بالكوفة بعد الحسين، والثّالث فريق اعتزل القتال واعتزل الجهر بالعقيدة فانزوى في بيته أو أظهر الزّهد للناس وامتنع من القتال ثمّ دفعته الثّورة الدّاخلية والمرارة والحزن الدّفين، لعجزه عن أن يصنع شيئاً لإحقاق ما يراه حقاً، فظهر بذلك الزّهد الاصطلاحي الّذي أدى إلى التّصوف، ومن أجمل ما قيل في هذا المجال ما أورده أبو طالب المكي الّذي قرن حركة الزّهاد المتطرفين بحركة الخوارج فبين لنا أنّهما استقيا من منبع واحد، هو الثّورة على الفساد الّذي عم الأرض والمعارضة له، فقال في الزّهاد البصريين –وظروف الكوفة أقسى من ظروف البصرة– «فهرب هؤلاء من الأفَن والاغترار فوقعوا في أعظم منهما من القنوط والإياس فصاروا في كبائر المعاصي من خوفهم منها، فمثلهم مثل الخوارج خرجوا على الأئمّة بالسّيف لإنكار المنكر فوقعوا في أنكر المنكر من تكفير الأئمّة..»[2]، وقد تحالفت الكوارث على الكوفة فزادتهم اندفاعاً في ميادينهم الثّلاثة حتّى جاء الحجاج فبلغ الغاية في التّنكيل والتّعذيب إلى حد أنّ النّاس جعلوا يصرحون بالكفر نجاة من القتل[3]، وكان الحجاج نفسه يفضل الخليفة الأموي على النّبي بقوله: «أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله في حاجته؟!»[4]، ولقد سمعنا أيّام الحجاج عجباً فقد كان من مناقب العرب يومئذ «الفرح بقتل الحسين وسب علي والحسن والحسين وفاطمة»[5]، وكان مصعب بن الزّبير إلى ذلك عاتياً على الكوفيين، واستمرت الأحداث واستمر معها خروج النّاس من المعارضة الإيجابية إلى المعارضة السّلبية.

وقائمة الزّهاد من الشّيعة طويلة ولكنها لم تعرف من قبل، فقد كان الرّبيع بن خثيم عامل علي على الرّي وقزوين أوّل الزّهاد الكوفيين ممن امتنعوا عن قتال المسلمين وفضلوا الخروج إلى الثّغور[6]، وكان أويس القرني «المتوفى سنة ٦٥٧/٣٧– ٦٥٨» شيعياً وصفه الأسفراييني بأنّه «أحد النّساك العباد»[7] ورجح أنّه قتل في صفين مع علي، وكان أويس يتمتع بمكانة عظيمة في الزّهد إلى حد أنّه ورد فيه حديث نبوي يبشر به وينص على اسمه ويأمر عمر وعلياً أن يرعياه، وقد عين النّبي علامة يعرف بها أويس[8] مما رأيناه خاصاً بالنّبي نفسه ومن ادعى المهدية من بعد من أمثال محمّد بن عبد الله الحسن والمهدي الاثنا عشري، بل يورد ابن سعد أنّ رجلاً تحول من جيش معاوية إلى جيش علي حين عرف أنّ أويساً فيه[9]، وكان كميل بن زياد النّخعي زاهداً شيعياً قديماً ولي لعلي ولاية هيت وعانات وآمد وقد قتله الحجاج سنة ٧٠٢/٨٣، وكان يقول له: لقد أخبرني مولاي أنّك قاتلي[10]، ولكميل دعاء مشهور يتلوه الشّيعة في مجموعة أدعيتهم وهو من رجال السّلاسل الصّوفية وتتصل به سلسلة خرقة طريقة النّور بخشية في إيران[11]، وكان خبّاب بن الأرت ناسكاً شيعياً من النّواحين البكائين[12] وكان من المعذبين الأولين في الإسلام وكان سعيد بن جبير «المقتول سنة ٩١٢/٩٤– ١٣» زاهداً شيعياً مع أنّه ولي القضاء للحجاج وخرج مع ابن الأشعث، ودليل شيعيته أنّ الحجاج –قبل أن يقتله– سأله رأيه في علي وفي معاوية[13] مما كان يتطلب البراءة من علي أو القتل في سبيله.

وكان زيد ناسكاً أيضاً تمنى سعيد بن جبير لو انقطع إليه وروى عنه سفيان الثّوري[14]، وكان أبو صالح ماهان الحنفي من ضحايا الحجاج أيضاً وكان زاهداً، ولقي رشيد الهجري وميثم التّمار الشّيعيان مصرعهما على يد الحجاج أيضاً[15]، وقد عرض طلحة بن مصرف الزّاهد نفسه للقتل بالامتناع عن البراءة من علي مع أنّه ندم أشد النّدم على اشتراكه في وقعة الجماجم[16]، وقد قتل

(١) شخصية الفرد العراقي ص٤٧.
(٢) قوت القلوب ١٥٣/٢.
(٣) الطّبري، ليدن ١٠٩٦/٢– ١٠٩٧.
(٤) مروج الذّهب ١٤٥/٢، ونسب هذا الرّأي إلى خالد بن عبد الله القسري الّذي نسب إليه ابن الأثير عبارة تقول: «إنّ خليفة الرّجل في أهله أفضل من رسوله في حاجته يعني أنّ الخليفة هشاماً أفضل من رسول الله، نبرأ إلى الله من هذه المقالة» [الكامل، مصر ١٣٥٧، ٢٦٣/٤، حوادث سنة ١٢٦].
(٥) مروج الذّهب ١٤٣/٢.
(٦) الأخبار الطّوال، لأبي حنيفة الدّينوري، مصر ١٩٦٠، ص١٦٥.
(٧) التّبصير في الدّين ٢٢.
(٨) صفة الصّفوة ٢٢/٣.
(٩) ابن سعد ١١٢/٦– ١١٣.
(١٠) الإصابة لابن حجر العسقلاني ٢١٨/٣.
(١١) روضات الجنات ص٥٣٧.
(١٢) حلية الأولياء ١٤٣/١.
(١٣) الطّبري «ليدن» ١٠٩٦/١– ١٠٩٧.
(١٤) أيضاً ٣١/٥.
(١٥) صفة الصّفوة ٤٠/٣.
(١٦) حلية الأولياء ١٦/٥.

الحجاج قنبراً مولى علي سنة ٧٠١/٨٢ لمجرد شهوته لقتل رجل يوالي علياً، وكان زاهداً[١].

وهكذا يتضح لنا فشو التّشيع في الزّهد لأنّ انسحاب الشّيعة من ميدان القتال قد أورث فيهم هذا الميل من الدّخول في ميدان المقاومة السّلبية والمعارضة القلبية أو النّدم على الخيانة والبكاء من العجز عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ويؤيد شيعية الزّهد الكوفي أنّ علياً قد وصف شيعته لقنبر بأنّهم «خمص البطون من الطّوى يبس الشّفاه من الظّما، عمش العيون من البكا»[٢]، وقد مر بنا وصف حفيده للشيعة بالنّعت ذاته وكذلك وصف أبي نعيم لهم بأنّهم الذّبل الشّفاه المفترشو الجباه، وبذلك يتضح استغراق التّشيع للزهد كما استغرق المعارضة، أمّا بالنّسبة لزهاد القرن الثّاني في الكوفة فمن المعروف أنّه قد كان جابر بن حيان شيعياً وكذلك الأمر بالنّسبة لسفيان الثّوري شيخ مدرسة الزّهد الكوفية ويتبين ذلك من مبايعته لمحمّد بن عبد الله بن الحسن الثّائر بالمدينة كما مر بنا في فصل الزّيدية، وكذلك كان عبدك الصّوفي[٣]، ويمكن أن يصح هذا القول على أغلب زهاد الكوفة ويمكن إثباته من أخبارهم أو أقوالهم، ولعل مما يقوم مثلاً على هذا الرّأي أنّ محمّد بن السّماك، القاص المشهور «المتوفى سنة ٧٩٩/١٨٣» الّذي تزهد معروف الكرخي بوعظه، كان مولى لبني عجل[٤]: القبيلة الّتي أسست مدرسة للغلو ودولة له كما مر بنا.

أمّا ميادين الزّهد الكوفية فقد تعددت، فقد وجدنا فيها الزّهد الإسلامي الأصيل القائم على التّواضع في الملبس والمأكل والتزام تلاوة القرآن والخوف من عذاب الآخرة، ووجدنا في الكوفة الزّهد المنبعث من عذاب الآخرة، والزّهد الآتي من الأحداث الّتي تناوبت عليها من قتل ذريع ومن خيانة ومن نصرة للباطل ومن حسرة على العجز عن رد الظّلم، وسنرى أنّ الكوفة ستكون مثابة للبس الصّوف في العالم الإسلامي كلّه وسيتبين لنا أنّ ذلك كان مقصوراً عليها وكان تعبيراً عن معارضة سلبية، وفوق هذا كان في الكوفة أوّل من تسمى صوفياً وأوّل من قال بالولاية الصّوفية، وكانت الكوفة سباقة إلى الأخذ بمثل الفتوة الصّوفية كما سيمر بنا في نهاية هذا البحث، وبذلك تبدو أصالة الكوفة في ميدان الزّهد كما رأينا أصالتها في ميدان التّشيع وقد اطلعنا ماسينيون على أصالتها في الميادين الأخرى من الحياة الاجتماعية والعملية في القرنين الأوّل والثّاني.

(١) أيضاً ٨٦/١.

(٢) أيضاً ٨٦/١.

(٣) تاريخ تصوف در إسلام ص٤٢.

(٤) وفيات الأعيان باريس ١٨٣٨، ٦٨٨/١.

الزّهد الإسلامي في الكوفة:

لقد كان الإمام علي وأصحابه من صحابة الرّسول (ﷺ)، الّذين نصروه والتفوا حوله، يمثلون الزّهد الإسلامي الأصيل، وقد رأينا الإمام علياً أزهد الصّحابة وأعرفهم برسوم الإسلام، وقد التف حوله مريدوه يأخذون عنه ويعكسون مثلهم الإسلامية على مسلمي الكوفة، ولقد كان للإمام علي مثل مقام الرّسول في تذكير النّاس بأنّ بهم حاجة إلى التّوبة وإلى النّدم وإلى البكاء، وكان علي يذكرهم بأنّ ظروفهم الّتي يعيشون فيها إنما كانت صورة مشبهة لصورة ظروف مكة أيّام بعثة الرّسول (ﷺ) وقد كان علي يقول: «ألا وإنّ بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه، والّذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ولتغربلن غربلة حتّى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم..»[٥]، ويزيد هذه الفكرة وضوحاً أنّ عبد الملك بن مروان نفسه قال لأهل الكوفة بعد مقتل مصعب بن الزّبير قولاً مثل هذا لما خطب بالنّخيلة قرب الكوفة فنادى «أيّها النّاس، دعوا الأهواء المضلة والآراء المشتتة، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين وأنتم لا تعملون بها، فقد جاريتمونا إلى السّيف فرأيتم كيف صُنع بكم، ولا أعرفنكم بعد الموعظة تزدادون جرأة فإنّي لا أزداد بعدها إلا عقوبة..»[٦].

وقد قال الرّبيع بن برة قولاً يشبه أن يكون استجابة لمقالة علي هذه: «إنّ لله عباداً اخمصوا له البطون عن مطاعم الحرام وغضوا له الجفون عن مناظر الآثام وأهملوا له العيون لما اختلط عليهم الظّلام رجاء أن ينير ذلك لهم قلوبهم إذا تضمنتهم الأرض بين أطباقها، فهم في الدّنيا مكتئبون وإلى الآخرة متطلعون.. وهم الّذين تقر أعينهم بطلعة ملك الموت عليهم»[٧].

ولم تلبث أحوال الكوفة وظروفها أن طغت على الزّهد القائم على السّلم والاتجاه إلى الله بنفس مطمئنة، فاصطبغ زهد الكوفة برد فعل للأحداث الّتي نزلت بساحتها وقام على الشّعور بالإثم ومن هنا سمعنا الرّبيع بن خثيم يعلل بكاءه وأرقه لأمّه يقول: «قتلت قتيلاً هي نفسي»[٨]، فأقام لمن جاء بعده من الزّهاد والمتصوفة صورة نموذجية للمجاهدة، وكان أوّل من قال بها، ولأحداث الكوفة الفضل الأوّل في إنطاقه بهذا المعنى، وقد اندفع معضد بن يزيد العجلي -وقبيلته معروفة في الغالين- إلى الصّلاة وهجر النّوم وكان يقول: «اللهم اشفني من النّوم بالسّير»[٩].

(٥) أصول الكافي ص٩٦.

(٦) معاهد التّنصيص للعبّاسي «عبد الرّحمن بن أحمد، ت ١٥٦٩/٩٦٣»، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، مصر ١٩٤٧/١٣٦٧- ١٩٤٨، ٢٦/٢.

(٧) حلية الأولياء ٢٩٨/٦.

(٨) صفة الصّفوة ٣/٤٣، يؤرخ الذّهبي وفاة الرّبيع بأنّها كانت «في خلافة يزيد بن معاوية» أي بين سنة ٦١- ٦٨٠/٦٤- ٦٨٤ «تذكرة الحفاظ ٥٨/١».

(٩) حلية الأولياء ١٥٩/٤.

وقد ظهرت من معضد بداية خطيرة صارت منهجاً للزهاد الكوفيين من بعده، ذلك هو الخروج إلى الجبان للعبادة[١] وذلك انعكاس مريع للأحداث: فقد يئس معضد من فائدة الأحياء فخالط الموتى وانقطع إليهم لأنّهم لا يتنكبون طريق الصّواب ولا يوحون بالحق ويأتون الباطل، وكان سعيد بن جبير يخشع حين يردد هذه الآية: ﴿**فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ**﴾[٢]، وقد كان هذا العذاب الدّنيوي والأهوال الّتي قاساها أهل الكوفة ثمّ انعكست من نفوسهم زهداً وبكاءً وخوفاً باعثاً لهم على ملء وقتهم بالعبادة أو قراءة القرآن لأنّهم كانوا يخشون من الجنون إذا عاشوا كما يعيش غيرهم، بل وجدنا غيرهم ممن اعترفوا بثقل الجنون إذا عاشوا كما يعيش غيرهم، ووجدنا غيرهم ممن اعترفوا بثقل وخز الضّمير عليهم يقول: «إنّي لأذكر الشّيء من أمر الدّنيا ألهي به نفسي عن ذكر الآخرة، أخاف على عقلي»[٣]، وهكذا يتبين لنا مبلغ خوف الكوفيين من التّفكير في الحساب لأنّهم كانوا يدركون الحد الّذي بلغوه من غضب الله فكانوا يشغلون أنفسهم بالصّلاة الكثيرة والصّوم الطّويل وقراءة القرآن والانشغال بأية مشغلة تبعد عنهم شبح العذاب الّذي ينتظرهم في العالم الآخر، وكان الزّهاد الكوفيون يحاولون أن يكفروا شيئاً من تلك السّيئات الّتي قارفوها في دنياهم ويدفعوا ضريبة ما اقترفت أيديهم من خذلان الحق بعد أن نصروه، وقد حز النّدم في بعضهم حتّى تمنى لو قطعت يده ولم يشترك في قتال[٤]، أمّا المعذبو الضّمير الطّامحون إلى التّكفير فقد خرج منهم قوم فقاتلوا بقصد الموت كالتّوابين الّذين مروا بنا بعد قتل الحسين، وأمّا من قعد به الخوف من الموت عن القتال فقد كان يتمنى لو زاد الله في عذابه في النّزع عند الموت، كمثل إبراهيم النّخعي «المتوفى سنة ٧١٣/٩٥» الّذي ذكر أنّ الزّهاد «كانوا يستحبّون للمريض أن يجهد عند الموت»[٥]، وصارت هذه الفكرة راسخة في الزّهد الكوفي وكان سفيان الثّوري، أوّل زاهد التقت به الولاية الصّوفية، يقول: «ما من موطن من المواطن أشد عليّ من سكرة الموت، أخاف أن يشدد عليّ فأسأل التّخفيف فلا أجاب فأفتن»[٦]، وقد أطال الزّهاد التّفكير في الموت وكان القلق يملأ نفوسهم وكانت أحلامهم في الليل والنّهار تطوف حول الموت والآخرة، ولم يلبث ذلك القلق أن ظهر في أخبارهم، فقد رأى رجل مرة بن شراحيل الهمداني -من زهاد الطّبقة الأولى في الكوفة- في المنام بعد موته فسأله ما منزلتك في الآخرة؟ قال: «خير منزلة، دار لا ينتقل أهلها عنها ولا يموتون»[٧]، بل إنّ ربعي بن خراش -من الطّبقة الأولى أيضاً- مات له أخ وكان زاهداً، وحيي بعد موته، كما يزعم فقال في معرض وصفه للآخرة: «وإنّي وجدت الأمر أيسر مما تحسبون»[٨]، ونتج شيء آخر من هذه الفتن الّتي كانت تؤثر في عواطف الكوفيين حين يندفعون إلى الخروج ثمّ لا يلبث الميزان أن يختل بين المثل والإرادة الضّعيفة فترجح الإرادة الضّعيفة، وقد أورث ذلك الزّهاد روحاً انفرادية تأبى الاجتماع وتنفر من الألفة بالنّاس والإنس بهم فانزوى جماعة وانقطعوا في بيوتهم ونفروا من النّاس وكان قائلهم يقول: «ما كنت أرى أنّ أحداً يستوحش مع الله»[٩]، وهكذا بدأت فكرة الوحدة والانفراد وهي وإن تكن شبيهة بفكرة النّساك المنقطعين للعبادة إلا أنّ منطق الحوادث يجعل هذا الانفراد نابعاً من ظروف الكوفة، وقد سار منصور بن المعتمر «المتوفى سنة ٧٤٩/١٣٢- ٥٠» في هذا الطّريق إلى غايته فرأيناه يصوم ستين سنة يقوم ليلها ويصوم نهارها وكان في كلّ ذلك يبكي[١٠].

وكلّ هذا الّذي ذكرناه من الخوف والبكاء والورع، الّتي استبدت بالكوفة واستغرقت زهادها، كان منبعثاً من بيئة الكوفة موطن التّقلب وإهدار المثل بين لحظة وأخرى، لهذا فإنّه ليس

(١) طبقات ابن سعد ١١١/٦.

(٢) حلية الأولياء ٢٧٤/٤، غافر ٧١/٤٠- ٧٢.

(٣) حلية الأولياء ٢٤١/٦.

(٤) أيضاً ١٦/٥.

(٥) صفة الصّفوة ٤٨/٣، وقد جزع سفيان عند الموت جزعاً شديداً فقيل له: «أليس تذهب إلى من عبدته وفررت ببدنك [بدينك] إليه؟ فقال: ويحكم، إنّي أسلك طريقاً لم أعرفه وأقدم على رب لم أره»، العقد الفريد لابن عبد ربّه، ٢٢٣/٣.

(٦) أيضاً ٨٤/٣

قارن هذا بما يروى عن إبراهيم بن سيار النّظام المعتزلي «١٦٠- ٧٧٦/٢٣١- ٨٤٦» من أنّه -كان يقول وهو يجرد بنفسه- اللهم إن كنت تعلم أنّي لم أقصر في نصرة توحيدك، اللهم ولم أعتقد مذهباً إلا سنده التّوحيد، إن كنت تعلم ذلك مني فاغفر ذنوبي وسهل عليّ سكرة الموت! قالوا: فمات من ساعته، «طبقات المعتزلة لابن المرتضى الزّيدي، ٧٦٤- ١٣٦٣/٨٤٠- ١٤٣٧، لبنان ١٩٦١/١٣٨٠» ص٥٢.

(٧) صفوة الصّفوة ١٨/٣.

(٨) أيضاً ١٦/٣.

(٩) الرّسالة القشيرية: ص٦٧، ومثل هذه مقالة محمّد بن النّضر الحارثي الزّاهد الكوفي الّذي وصف بكونه من أعبد أهل الكوف، لما سئل: أما تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني، «صفة الصّفوة ٩٣/٣».

(١٠) حلية الأولياء ٤٠/٥، وكان الميل إلى الزّهد عند قريش من الكوفيين دواء للأمراض النّفسية كالحسد مثلاً ومن هنا سمعنا عون بن عبد الله بن عتبة الهذلي الكوفي يقول في تعليله زهده: «صحبتُ الأغنياء فلم يكن أحد أطول غَمّاً منّي إن رأيت أحداً أحسن ثياباً مني وأطيب ريحاً مني، فصحبت الفقراء فاسترحت»، «صفة الصّفوة لابن الجوزي، ٥٦/٣».

من المستغرب أن تختفي فكرة الحب من الكوفة مع ظهورها واضحة ناضجة في شقيقتها البصرة، فلم يكن للحب محل في الكوفة غير أنّه انصرف إلى طائفة معينة من الأئمة الّذين اتجهت إليهم عاطفة الكوفيين وخذلتهم أيديهم في الأحيان الّتي تغلب الخور فيها عليهم غير عامدين ولا متآمرين، وإنّما هو القلب الّذي لم يعد يحتمل رهبة ولم يعد يستطيع تماسكاً بعد التّجويع والإرهاب والموت الزّؤام، فالحب إذن قد انصرف في الكوفة إل الأشخاص ولم يتسام إلى المثل الأعلى الّذي هو الله كما كان الأمر في البصرة، ولعل ذلك يقطع بشيعية زهد الكوفة لأنّ الحب عندهم كان ما يزال مادياً موجهاً إلى أشخاص بأعيانهم أما الخوف فهو الّذي كان يدور حول الله في الكوفة.

الصّوف:

لقد ظهر في الكوفة نوع من الزّهد يتمثل في البساطة في اللّباس لم يكن ظاهراً فيها قبل نهاية القرن الأوّل وطغى عليها في أواخر القرن الأوّل وأوائل القرن الثّاني حتّى صار شعاراً للزّهاد أوّلاً ثمّ أطلق على الزّهد نفسه فصار له اصطلاحاً وذلك هو الصّوف الّذي اشتق منه التّصوف، وإذا استطعنا أن نثبت انفراد الكوفة بالصّوف بعد إثباتنا لشيعية الزّهد فيها كان ذلك برهاناً جديداً على أنّ التّشيع مصدر الزّهد الكوفي الّذي يدخل تحته الزّهد الإسلامي المعاصر له ثمّ التّصوف.

يكاد الباحثون يجمعون على أنّ اتخاذ الصّوف لباساً إنّما كان «لأنّ الزّهاد المسلمين وعبادهم حاكوا نساك النّصارى ورهبانهم فارتدوا الصّوف الخشن» كما يقول جولدتسيهر الّذي يؤرخ بداية هذه العادة في أيام عبد الملك بن مروان «الّذي حكم بين ٦٥- ٦٨٤/٨٦- ٧٠٥»[١]، وكذلك يروي نيكلسون ولكنّه يبين بأنّ «بداية لباس الصّوف الخشن كانت قبل الإسلام»[٢]، ويروي الدكتور قاسم غنى ذلك أيضاً ولكنّه يحدد ظهور لبس الصّوف أي جبة بيضاء منه بأواخر القرن الثّاني وأوائل القرن الثّالث، ويذكر أنّ هذا النّوع من اللّباس كان النّبي يفضله[٣]، ويؤيد ذلك ما يورده الكلاباذي من أنّ لباس أهل الصّفة الصّوف حتّى إنّ بعضهم كان يعرق «فيوجد منه مثل ريح الضّأن إذا أصابه المطر»[٤]، فنحن في حيرة متى بدأ لبس الصّوف وهل كان تقليداً للرهبان المسيحيين حقاً وهم الّذين يكاد الباحثون يجمعون على أخذ الزّهاد لباسهم المتميز عنهم؟ إذا رجعنا إلى كتب التّصوف وجدنا أبا طالب المكي يقول: «كان عيسى ويحيى بن زكريا يلبسان الصّوف»[٥]، ويروي السّراج أنّ «لبس الصّوف كان دأب الأنبياء والصّديقين وشعار المساكين المتنسكين»[٦] فأوحى إلينا بأنّه لباس الرّهبان أيضاً، ويذكر ابن سعد أنّ النّبي لم يطلق لبس الحرير لأحد من الرّجال إلا لعبد الرّحمن بن عوف وذلك لأنّه كان رجلاً قملاً أو مصاباً بمرض جلدي[٧] وذلك لا يشير إلى أنّ الصّوف كان سائداً، فليس كل ما يلبس من غير الحرير صوفاً ولكنّه يوحي بأنّه كان موجوداً وملبوساً أيام النّبي ما دام أصحاب الصّفة مرتدين له، والواقع أنّ لبس الصّوف من حيث هو قماش خشن لا يدل على أصل معين نقل عنه وإنّما يتطلب الأمر البحث عن أصله إذا اتخذ لباساً في الصّيف والشّتاء معاً، لقد أخبرنا ابن الجوزي أنّ القراء في الكوفة وكذلك الفتيان كان لهم لباس مخصوص[٨] في القرن الأوّل فلابدّ أن كان للزّهاد لباس خاص وهو الصّوف.

وينبغي هنا أن نغفل البحث عن الوقت الّذي بدأ فيه لبس الصّوف بالتّحديد لأنّ ذلك لا يؤدي بنا إلى نتيجة ولبس أويس القرني للصّوف[٩] «وهو المتوفى سنة ٦٥٧/٣٧- ٥٨» لا يدل على أمر عرفي وإنّما هو -إذا صح- تصرف فردي، والنّزعة الفردية لا تقوم أساساً للمجتمع، وإذا استحضرنا في الذّهن أنّ الزّهد يعني الهرب من الأحداث الجارية في الكوفة وأنّها كانت وقتئذ أعتى مركز للمعارضة بالسّيف كما فعل الخوارج، واللّسان والعقيدة، كما فعل الشّيعة، والمعارضة السّلبية الّتي تنبعث عن زهد الزّهاد، فعلينا الآن أن نقرأ هذا الخبر في شيء من إنعام النّظر، قال المسعودي في وصف سليمان بن عبد الملك الّذي ولي الخلافة سنة ٩٦-٧١٤- ١٥، أي بعد الحجاج الّذي فعل الأفاعيل في الكوفة: «وكان يلبس الثّياب الرّقاق وثياب الوشي، وفي أيامه عمل الوشي الجيد باليمن والكوفة والإسكندرية ولبس النّاس جميعاً الوشي جباباً وأردية وسراويل وعمائم وقلانس، وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته إلا في الوشي، وكذلك عماله وأصحابه ومن في داره،

(١) العقيدة والشّريعة في الإسلام ص١٣٦.
(٢) في التّصوف الإسلامي ص٤٨.
(٣) تاريخ تصوف در إسلام ص٤٣.
(٤) التّعرف لمذهب أهل التّصوف ص٦.
(٥) قوت القلوب ١٩٢/٣.
(٦) اللّمع ص٤٣.
(٧) طبقات ابن سعد ٣: ٦٢/١، وعن منع لبس الحرير للرجال انظر مثلاً «من لا يحضره الفقيه»، طهران ١٣٧٦، ص٤٦٧ ومما يذكر هنا أنّ ابن سعد قد نص على أنّه «كان المسلمون يلبسون الحرير في الحرب» الطّبقات ٦٢/٣.
ومما يحسن أن يضاف إلى هذا أنّ ملك الرّوح أهدى إلى النّبي (ﷺ) «مستقة» من سندس، وأهدى إليه أبو جهم قباء حريراً، غير أنّه (ﷺ) كرههما فأرسل المستقة هدية إلى النّجاشي وأعاد القباء إلى صاحبه، وكان في هذا يصدر عن قوله: «لا ينبغي هذا للمتقين» و«ألهتني عن الصّلاة» و«كاد يفتيني» «طبقات ابن سعد ١: ١٥١/٢».
(٨) صفة الصّفوة ٤٧/٣.
(٩) طرائق الحقائق ٢٢/٢.

وكان لباسه في ركوبه وجلوسه وعلى المنبر، وكان لا يدخل عليه أحد من خدامه إلاّ في الوشي حتّى الطّباخ فإنّه كان يدخل إليه في صُدْرةِ وشي وعلى رأسه طويلة وشي، وأمر أن يكفن في الوشي المثقلة»[1]، وكذلك فعل هشام بن عبد الملك «الّذي حكم من سنة ٧٢٣/١٠٥ إلى سنة ٧٤٣/١٢٥» «فسلك النّاس جميعاً في أيامه مذهبه»[1]، وبذلك يمثل لبس الحرير أو الثّياب المنمنمة المنقوشة سياسة عامة اتخذتها الدّولة الأموية وأمرت بها خلفاؤها، ومما يجلو هذه الحقيقة أنّ عمر بن عبد العزيز كان أوّل من تنبّه إلى هذا التّرف الظّالم المخالف للمعهود من التّقاليد الإسلامية، ومن هنا اعتبر أموال الأسرة المالكة الأموية مظالم وعمد إلى ما يسمى في الوقت الحاضر بتجميد أموالهم وعين غيلان الدّمشقي، المتكلم القدري الّذي يقول بحريّة الإرادة الإنسانية، حارساً عليها، وطلب إليه بيع الخزائن وردّ المظالم[2]، وكان ينادي، عند اجتماع النّاس لتصفية هذه الأموال: «تعالوا إلى متاع الخونة، تعالوا إلى متاع الظّلمة»[2].

(١) مروج الذّهب ٦٢/١، والوشي هو نقش الثّوب ونمته ونقشه وتحسينه كما في القاموس المحيط.

(٢) طبقات المعتزلة لابن المرتضى الزّيدي «الإمام أحمد بن يحيى ٨٤٠هـ/ ١٤٣٧م» بيروت ١٩٦١ ص٢٦، ومن المعروف أنّ عمر بن عبد العزيز كان يبحث عن قوم من أصحاب النّزاهة والدّين يستعين بهم على تنفيذ مطامحه في العدل والأخلاق «انظر البصائر والذّخائر للتوحيدي ص٧٦» وقد اكتشف عمر بن عبد العزيز أنّ الأسرة المالكة الأموية كانت تملك لأيامه نصف أو ثلث الثّروة القومية كلّها فحاول أن تكون المبادرة منهم في التّنازل عن شطر من هذه الأموال ترفع مستوى المعيشة وتخفف فقر الفقراء، فما أعانون، ومن هنا حاول الاستعانة بغيرهم إرغاماً لهم، ويقول الخبر الّذي أورده أبو نعيم الأصفهاني ما يأتي:

قال عمر بن عبد العزيز لحاجبه: لا يدخلنّ عليّ اليوم إلا مروانيّ، «باعتبارهم عشيرته والطّبقة الحاكمة».

فلما اجتمعوا عنده حمه الله وأثنى عليه ثمّ قال: يا بني مروان، إنّكم قد أعطيتم حظّاً وشرفاً وأموالاً وإنّي لأحسب شطر أموال هذه الأمّة أو ثلثه في أيديكم.

فسكتوا.

فقال عمر: ألا تجيبوني؟

فقال رجل من القوم: والله، لا يكون ذلك حتّى يحال بين رؤوسنا وأجسادنا، والله، لا نكفّر آباءنا ولا نفقر أبناءنا.

فقال عمر: والله، لولا أن تستعينوا عليّ بمن أطلب هذا الحق له، لأصعرت خدودكم، قوموا عنّي.

«حلية الأولياء ٢٧٣/٥» ويبدو أنّ هذا المعارض كان هشام بن عبد الملك الّذي ولي الأمر بعد عمر، وهو قاتل غيلان الدمشقي، إذ ذكر أنّه خاطب عمر بن عبد العزيز في مجلس آخر بقوله: إنّا والله -لا نعيب آباءنا ولا نضع شرفنا في قومنا فقال عمر: وأيّ عيب أعيبُ مما عابه القرآن؟» «أيضاً ...

وأهم ما يتصل هذه الفقرة بكتابنا أنّه كان فيما ينادي عليه جوارب خَزّ، فبلغ ثمنها ثلاثين ألف درهم، وقد ائتكل بعضها[2]، وكان تعليق غيلان على هذا كله قوله: «من يعذرني ممن يزعم أنّ هؤلاء كانوا أئمة هدى، وهذا يأتكل والنّاس يموتون من الجوع»[2]، ولم يكن غريباً أن يتعرض غيلان للقتل بيد هشام بن عبد الملك سنة ١٠٠هـ/ ٧١٨- ٧١٩، وفي حياة عمر بن عبد العزيز نفسه، ثمّ كتب المصنفون أنّ غيلان قد قتل لقوله بما يخالف الإسلام.

وإذا عرفنا أنّه لم يرد للبس الصّوف ذكر في الشّام ولا في مصر الّتي يسميها ميتز «مهد الرّهبنة»[3] وأنّ أوّل من تسمى صوفيّاً فيها كان أبا عبد الله الصّوفي الثّائر الأندلسي بالإسكندرية «سنة ٨١٤/١٩٩- ٨١٥»[4] ولم يرد عنه لبس الصّوف، ثمّ إنّ هذا التّاريخ المتأخر لا ينفي شيئاً ولا يثبت وإنما يدل على أنّ انتشار لبس الصّوف، حتّى على فرض اتصاله بالرّهبنة، لم يتحقق إلا في الكوفة معاصراً لحركة نشر التّرف الظّاهري مما رأيناه في خبر المسعودي، وما دامت دمشق والشّام -وكان فيها زهد متميز يختلف عن زهد الكوفة كما سنرى- لم يلبس زهادها الصّوف وهم في قلب المسيحية الشّرقية آنئذ فلا ندري كيف يكون الصّوف مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالرّهبنة؟ وأكثر من هذا لقد كان للزهاد في الشّام اسم مستقل ينم عن جوهر الزّهد عندهم ويذكر الكلاباذي أنّهم كانوا يسمون جوعية[5]، وسنرى في تعرضنا لزهد البصرة أنّ الزّهاد فيها لم يهتموا بالصّوف وأنّ من لبسه منهم إنما كان متأثراً بزهد الكوفة، ونعود إلى الكوفة فنلتفت إلى أنّها اخترعت أسلوباً للمعارضة لا تستطيع سلطة أن تؤاخذها عليه، وكان هذا الوشي الّذي فضله هشام وسليمان يصنع في الكوفة ولعلها كانت من خير المراكز الّتي يصنع فيها، والكوفية مشهورة حتّى الآن، فانقلب الزّهاد، الّذين كانت معارضتهم خفية سلبية تتمثل

٢٧٣/٥» والخز هو الإبريسم كما في تلخيص كتاب النّهاية في غريب الحديث لابن الأثير «مجد الدّين المبارك بن محمّد الجزري، ت٦٠٦هـ/ ١٢١٠م» بقلم السّيوطي، مصر ١٣١٨هـ ٣٢٧/١، والأبريسم هو الحرير، معرّب أبريثم الفارسية كما في المعجم الذّهبي للدكتور محمّد التونجي، بيروت ١٩٦٠م، ص٥٦، ويقول مجد الدّين بن الأثير في هذا الشّأن: «في حديث علي أنّه نهى عن ركوب الخز والجلوس عليه، الخز المعروف أولاً: ثياب تنسج من صوف وإبريسم وهي مباحة وقد لبسها الصّحابة والتّابعون، فيكون النّهي عنها لأجل التّشبه بالعجم، وزيّ المترفين، وإن أريد بالخز النّوع الآخر، وهو المعروف الآن، فهو حرام لأنّ جميعه معمول من الإبريسم، وعليه يحمل الحديث الآخر: «قوم يستحلّون الخز والحرير» «٣٢٧/٢».

(٣) الحضارة الإسلامية ١٢/٢.

(٤) أيضاً ١٣/٢.

(٥) التّعرّف ص٥.

في العزلة، إلى الصّوف المضاد للحرير يلبسونه ويقبلون عليه وصار لباساً خاصاً بهم، كما كان للقراء والفتيان لباسهم الخاص، ولعل مما يؤكد هذه الحقيقة أنّه قد روي عن سفيان الثّوري لومه الإمام جعفراً الصّادق على لبسه جبة من الخز - وكانت بداية إمامته في أيّام هشام- فأراه ثوباً من شعر خشن تحت الجبة، ويحدثنا الشّعراني والعطار وأبو نعيم أنّ سفيان قد كان يلبس جبة من الصّوف[١]، ولعل هذا الخبر ينفي ما يروى عن سفيان أنّه اعتبر لبس الصّوف بدعة[٢]، وإذا عرفنا أنّ الرّبيع بن أبي راشد المعاصر لسفيان الثّوري كان يرى السّياحة بدعة وأنّ سفيان الثّوري كان سائحاً مشهوراً يلام على سياحته، كما أورد أبو نعيم أنّه قيل لسفيان «إنّ للناس مأوى تأوي إليه وللسبع مأوى وما لك مأوى تأوي إليه»[٣]، وأنّه كان ينسب إلى العجب[٤] عرفنا مدى هذا الخبر من الصّواب.

وبذلك يتبين لنا أنّ الكوفة كانت مركز اتخاذ الصّوف شعاراً للزهاد وأنّ الكوفيين قد تأثروا -مندفعين مع موجة الزّهد الّذي اتخذ معارضته للأمويين من لباسه- اقتداء بمن لبس الصّوف قبلهم من الزّهاد أو الرّهبان، غير أنّ علينا أن نتنبه إلى حقيقة مهمة وهي أنّ لبس الصّوف لم يكن آتياً من تأثر بالمسيحية من حيث هي دين بل من تقليد قوم منهجهم في الحياة مشبه لمنهج الزّهاد الكوفيين الّذين أرادوا أن يظهروا معارضتهم للأمويين بلبس لباس مضاد لما أمر به الخليفة الأموي، وتأتي فكرة التّأثر بالرّهبنة المسيحية في الدّرجة الثّانية، ولو كان قوم غير الرّهبان يتخذون الصّوف لباساً لأخذ الكوفيون عنهم لباسهم تحقيقاً لمعارضتهم الّتي تعلقوا بها.

وبذلك يبدو أنّ لبس الصّوف بالذّات لم يكن تحرياً لتقليد الرّهبان وإنما كان مقاومة سلبية للاتجاه لبث الإرفاه في اللباس في مجتمعهم، وإذا عرفنا أنّ الضّرائب والرّسوم كانت تجبى من العراق ومن فارس الّتي فتحت بجهد العراقيين، وأنّ الحرير نفسه -بالإضافة إلى بنات فارس- كانا يشكلان الأسلاب والغنائم الّتي كان الحجاج يبعث بها إلى الشّام[٥]، وأنّ عمر بن عبد العزيز «المتوفى سنة ١٠١» كتب إلى عامله في الكوفة أنّ «أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السّوء»[٦]، أدركنا لماذا صارت الكوفة بعد ضعفها وخورها مركزاً لاتخاذ الصّوف لباساً، وإذا تبين لنا أنّ نيكلسون حائر في أصل التّصوف ونشأته وأنّه يرى أنّ التّتابع الزّمني في تطور الفكرة الصّوفية لم يضطلع بدراسته أحد[٧] أدركنا إلى أي حد يظلم الباحثون التّصوف بالأحكام القطعية فيما لا يحتمل أحكاماً قطعية.

ويحسن بنا في ختام هذه السّطور، أن نشير إلى أنّ الصّوف لم يكن مادة يهتم بها العرب وإنما كان شيئاً مهملاً غير ذي خطر، ولعل العرب لم يلبسوا ثياباً منسوجة منه حتّى في الشّتاء، وقد ذكر الجاحظ أنّ أهل البصرة كانوا يلبسون القمص في الحر والمبطنات في البرد[٨]، وورد في نشوار المحاضرة أنّهم كانوا يلبسون المحشو[٩]، وهو لباس من القطن يحشى داخله ليقي من البرد، أو كانوا يلبسون الفرو كما كان داود الطّائي يفعل[١٠]، ومما يلاحظ أنّه حتّى اللغويون -الّذين دأبوا على جمع كلّ المعاني والألفاظ- لم يثبتوا للصوف وللنسيج المعمول منه أي اسم أو نعت أو قماش على كثرة ما أوردوا من أسماء النّسيج من الخز والقز والحرير والقطن والكتان، وعلى عديد ما أوردوه من أسماء رقيق الثّياب وكثيفها ومُزْأبرها ومخطّطها وموشّاها إلا في الأكسية الّتي تلبس فوق الثّياب، وكلّ هذا يوحي بأنّ لبس الصّوف كان تقليداً غير عربي، وبأنّ الإقبال على اتخاذه لباساً إنما كان أمراً جديداً على العالم العربي الإسلامي أخذوه عن غيرهم لتطبيق خطة معينة، وأنّ ما أوجب لبسه لم يكن الحاجة إليه بوصفه نسيجاً يقي من البرد وإنما كان لتحقيق مطلب مُلِحّ، ونظرة إلى المخصص لابن سيّده[١١] «المتوفى سنة ١٠٦٦/٤٥٨» توضح هذه الحقيقة، فخلو هذا الكتاب الّذي أُلّف في منتصف القرن الخامس، وفي وقت كان التّصوف فيه يملأ العالم الإسلامي، يدل على إهمال النّاس والتّجار هذه الصّناعة ويدل من ثمة على أنّه كان لباس الزّهاد وبالتّالي المتصوفة المتلبسين بالفقر الملتزمين لمظهره.

أوّل من تسمّى صوفيّاً:

يؤدي بنا البحث في لبس الصّوف إلى قضية بدأت في الكوفة، وذلك أنّ أوّل من تسمى بالصّوفي كان كوفيّاً ولعل ذلك دليل آخر على ما سقناه من علة اختيار الزّهاد الصّوف لباساً لهم، والباحثون مختلفون في من هو أوّل من تسمّى بالصّوفي وتدور أخبارهم في هذا الشّأن حول ثلاثة من الزّهاد

(١) طبقات الشّعراني ٢٨/١، تذكرة الأولياء ٩/١، الحلية ٩٣/٣.
(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص٢٠٩.
(٣) حلية الأولياء ٧٧/٥.
(٤) أيضاً ٣٧٤/٦.
(٥) راجع ديوان الأخطل، بيروت ١٨٩١- ١٩٨٢، ص٧٤.
(٦) ابن الأثير ٢٣/٥.
(٧) في التّصوف الإسلامي ص١٢.
(٨) معجم البلدان ٢٠٢/٢.
(٩) نشوار المحاضرة، الجزء الثّامن، مجلة المجمع العلميّ العربي بدمشق، المجلد العاشر، ص١٤٨.
(١٠) صفة الصّفوة ٧٤/٣.
(١١) المخصص، مصر ١٣١٦، كتاب اللباس، وخصوصاً ٦٣/٣- ٨١.

الكوفيين هم جابر بن حيان وأبو هاشم الكوفي وعبدك الصّوفي، وسنعرض لكلّ منهم بالبحث لنعرف حقيقة ما يدور حول كلّ منهم.

جابر بن حيان:

هو -كما مر- تلميذ الإمام جعفر الصّادق، أو عبده[١]، وكان يلقب بالصّوفي، وقد أورد عنه ابن النّديم أنّه «المعروف بالصّوفي»[٢]، وأورد ابن النّديم أنّ النّاس مختلفون في أمره، فالشّيعة تزعم أنّه منهم بل من كبارهم وأحد الأبواب، والفلاسفة يرونه منهم لأنّ له مصنفات في الفلسفة، وادعى أهل صناعة الذّهب أنّه منهم أيضاً، وقيل إنّه كان من جملة رجال البرامكة وأنّه كان منقطعاً إلى جعفر البرمكي بدل جعفر الصّادق، وقيل في النّهاية: «إنّ هذا الرّجل لا أصل له ولا حقيقة»[٣]، ولكن ابن النّديم يرفض هذه النّظرية ويدلل على وجود جابر بن حيان بأنّ «أمره أظهر وأشهر، وتصنيفاته أعظم وأكبر ولهذا الرّجل كتب في مذاهب الشّيعة»[٤]، ويضيف إلى ذلك أنّ أصله من خراسان فيضعه بذلك بإزاء إبراهيم بن أدهم الّذي عاصره وعاش في الشّام، ثمّ ينقل ابن النّديم نصّاً يعتبره قاطعاً في حقيقة وجود جابر، وذلك أنّ الرّازي يقول في كتبه المؤلفة في الصّنعة: «قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان»[٥]، بل يذكر ابن النّديم لجابر طلاباً أخذوا عنه كالخرقي[٦] «الّذي تنسب إليه سكة الخرقي بالمدينة» وابن عياض المصري «لعله الفُضَيْل» «المتوفى سنة ٨٠٣/١٨٧» والإخيمي[٧]، وقد لاحظ فيليب حتي صلة جابر بالصّادق وذكر أنّه أطلق عليه اسم الصّوفي ورأى أنّه ادعى مذهباً خاصاً في الزّهد[٨]، ويرد في أخبار الحكماء أنّ جابر بن حيان كان «مشرفاً على كثير من علوم الفلسفة ومتقلداً للعلم المعروف بعلم الباطن وهو مذهب المتصوفين من أهل الإسلام كالحارث المحاسبي وسهل بن عبد الله التُّسْتَري ونظرائهم»[٩]، ويذكر ابن أبي أصيبعة كتب جابر دون مناقشة ويؤرّخ وفاته بسنة ٢٠٨[١٠] أي بعد وفاة جعفر الصّادق بستين سنة وذلك أمر قابل للشك على كلّ حال، ومهما يكن من شيء فقد رأينا خالد بن يزيد بن معاوية «المتوفى سنة ٧٠٢/٨٥» مصيباً لعلم الكيمياء وأنّه قد استقدم من مصر كيميائيين ترجموا له الكتب اليونانية والقبطية، أمّا الشّيعة فلا يجدون ضيراً في إلحاق جابر بالصّادق لأنّ ذلك لا يمس عقيدتهم في شيء وهم إلى ذلك قد وافقوا على أنّ جعفراً الصّادق كان له بصر بالكيمياء لأنّه جمع كلّ العلوم بوصفه إماماً معصوماً محيطاً بكلّ شيء علماً، ويشكو الخوانساري من أنّه لم يجد لجابر ترجمة خاصة في شيء من فهارس رجال الفريقين[١١]، وينقل نصاً عن كتاب غاية الحكيم للمجريطي يتضمن هذه العبارة: «وأمّا البارع في هذه الصّناعة على الإطلاق [علوم الطّلسمات] فهو المقدم فيها الشّيخ الأجل أبو موسى جابر بن حيان الصّوفي منشئ كتاب المنتخب»[١٢].

ومهما يكن من أمر فإنّ كتب الشّيعة القديمة لم تورد اسم جابر بن حيان في سلسلة سند أي حديث ينسب إلى جعفر الصّادق، ثمّ إنّ صلة جابر بالتّصوف اسمية لأنّه لم يكن صاحب مجاهدة أو خوف أو ناطقاً بأقوال زهدية وإنما نقل عنه اشتغاله بالكيمياء ونقلت عنه كذلك مشارب إسماعيلية في مجموعة الرّسائل المنسوبة إليه الّتي أخرجها بول كراوس، وقد التفت السّيد هبة الدّين الشّهرستاني -من مجتهدي الشّيعة المعاصرين- إلى هذه النّقطة فروى لنا عن أستاذه شيخ الشّريعة الأصفهاني أنّ تسمية جابر بن حيان بالصّوفي ليست منسوبة إلى الصّوف وإنما النّسبة إلى سوفيا اليونانية بمعنى الحكمة فقيل: سوفي ثمّ أشبع العرب السّين فصارت «صوفي وصوفية» وقال: وأوّل هؤلاء المسلمين جابر بن حيان المشهور بالصّوفي، ولم يكن هذا الفيلسوف العظيم حاملاً لأي مبدأ من مبادئ الطّريقة الصّوفية[١٣]، فيبدو من رأي الشّهرستاني أنّ الصّوفي هو المقلد للحكمة اليونانية وعلومها ويرى أنّ هذا الوصف لم يستقر على الأساس الاصطلاحي إلا فيما بعد[١٤]، والواقع أنّ هذا الرّأي قد تعرض له البيروني في

(١) خلاصة الأثر ٢١٣/١.
(٢) الفهرست ص٤٩٨.
(٣) أيضاً ص٤٩٩.
(٤) أيضاً ص٥٠٠.
(٥) أيضاً ص٤٩٩.
(٦) أيضاً ص٤٩٩.
(٧) أيضاً ص٤٩٩.
(٨) تاريخ العرب ٢٢/٢.
(٩) أخبار الحكماء للقفطي ص١١١.
(١٠) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٢٠٣.

(١١) روضات الجنات، ص١٥٤.
في كتاب غاية الحكيم للمجريطي «المتوفى سنة ٣٩٥»، تحقيق ريتر، طبع ألمانيا ١٩٣٣، ص١٤٦: «.. وأما البارع في هذه الصّناعة على الإطلاق فهو المقدم فيها أبو موسى جابر بن حيان الصّوفي.. منشئ كتاب البحث في صنعة الطّلسمات».
(١٢) روضات الجنات، ص١٥٤.
في كتاب غاية الحكيم للمجريطي «المتوفى سنة ٣٩٥»، تحقيق ريتر، طبع ألمانيا ١٩٣٣، ص١٤٦: «.. وأما البارع في هذه الصّناعة على الإطلاق فهو المقدم فيها أبو موسى جابر بن حيان الصّوفي.. منشئ كتاب البحث في صنعة الطّلسمات».
(١٣) إملاء للسيد الشّهرستاني، وقد توفي إلى رحمة الله.
(١٤) إملاء للسيد الشّهرستاني، وقد توفي إلى رحمة الله.

كتاب «بيان ما للهند من مقولة، لندن ١٨٨٧، ص١٥» وتبناه فون هامر، غير أنّ نولدكه قد أثبت خطأ هذه النّسبة «انظر في التّصوف الإسلامي لنيكلسون، ترجمة الدّكتور أبو العلا عفيفي ص٦٦- ٦٧، والصّوفية في الإسلام للمؤلف نفسه، ترجمة نور الدّين شريبة ص٢- ٤».

أمّا بعد فإنّ جابر بن حيان -إن صح وجوده- كان رجلاً منزوياً كزملائه الزّهاد، ولكنه صرف هذا الانزواء إلى الاشتغال بالكيمياء والحكمة اليونانية وذلك يحمل على الحيرة حقاً في بيئة مثل بيئة الكوفة الّتي شغلت بالحديث والرّواية والزّهد، وكون جابر خراسانياً كما أخبرنا ابن النّديم أبعث على الحيرة إذا قرنا به الاشتغال بالكيمياء لأنّ الخراسانيين لم يعرف عنهم ذلك وإنما كان جهدهم منصرفاً إلى البحث في العلم الظّاهر والباطن والدّعوة السّرية، ولهذا فإنّ كون جابر بن حيان أوّل من أطلق عليه لفظ صوفي في الإسلام يصطدم بعقبتين: الأولى أنّه لم يكن زاهداً بالمعنى المفهوم من الزّهد المتأثر بالبيئة المتجهة إلى البعد عن المشاركة في الأحداث والإعراض عن المادة الّتي سببت فساد الضّمير أوّلاً واستيقاظه من بعد ذلك، يضاف إلى ذلك أننا لم نسمع عنه كونه من البكائين أو العباد المتنسكين، والعقبة الأخرى هي الشّك في وجوده وخلو كتب الرّجال الشّيعية والصّوفية من ذكره باعتباره حلقة في سلسلة أو ملاقياً لشخص يروي عنه رؤية وعياناً، وما نرجحه نحن أنّ جابر بن حيان كان شخصية أسطورية، فلقب «صوفي» لم يطلق على ممارسي هذه العلوم المأخوذة عن اليونان إلا في القرن الرّابع حين وجدنا منجماً يدعى بالصّوفي[١]، ثمّ إنّ جابر بن حيان، في روايته للعلوم عن جعفر الصّادق، كان على مثال أفلاطون الّذي روى إنتاج سقراط وكان هذا الأخذ عن اليونانيين وانتشاره متأخرين عن التّاريخ الّذي حدد لوفاة جابر.

ولهذا فإنّ علينا أن نبحث عن رجل آخر يمكن أن تدور حوله كلمة صوفي وإن كان ذلك كلّه لا يقدح في احتمال كونه أوّل من دارت حوله.

أبو هاشم الكوفي:

وكان كوفي آخر يوصف بهذا الوصف ذلك هو أبو هاشم عثمان بن شريك الكوفي الصّوفي، وقد ذكر الجامي أنّه كان في الشّام وهو كوفي الأصل وكان معاصراً لسفيان الثّوري، ويذكر أنّه هذا قال فيه: «لولا أبو هاشم ما عرفت دقائق الرّياء»[٢]، ويذكر أنّه بنى أوّل خانقاه للصوفية في الرّملة، ويورد محمّد كرد علي أنّ أوّل من تسمى بالصّوفي من أهل السّنة أبو هاشم الكوفي سنة ٧٦٧/١٥٠ «وكان من النّساك يجيد الكلام وينطق بالشّعر كما وصفه الجاحظ»[٣]، ويعلل الحاج معصوم علي تسميته بالصّوفي بأنّه «كان يلبس لباساً طويلاً من الصّوف كفعل الرّهبان ويرى أنّه كان يقول بالحلول والاتحاد مثل النّصارى، غير أنّ النّصارى أضافوا الحلول والاتحاد إلى عيسى (عليه السلام) وأضافهما هو إلى نفسه وكان متردداً بين هاتين الدّعويين، ولم يعلم على أيّهما استقر في النّهاية»[٤]، وينقل عن كتاب أصول الدّيانات أنّه «كان أمويّاً وجبريّاً في الظّاهر وباطنيّاً ودهرياً في الباطن وكان مراده من وضع هذا المذهب أن يثير الاضطراب في الإسلام»، وينقل أنّ صاحب أصول الدّيانات يرى أنّه ورد عنه أحاديث كثيرة في الطّعن على الأئمّة المعصومين ويرى «إنما سماه المشايخ بالصّوفي بقطع النّظر عن لبسه الصّوف أو عدمه وقد نسبوه إلى الهاشمية وأبي الهاشمية والعثمانية والشّريكية مرة بالاسم وطوراً بالكنية وتارة باسم أبيه»[٥].

وهذا الاضطراب في أمر أبي هاشم إذا نخل يبقى منه أنّه كان زاهداً كوفيّاً وأنّه كان من الموالي أيضاً لأنّ أحداً لم يذكر عربيته ولم يذكر اسم قبيلته، وأنّه لم يطق البقاء في الكوفة الشّيعية فانتقل إلى الشّام، وما دام قد توفي هناك في سنة ٧٦٧/١٥٠، وكان سقوط الدّولة الأموية سنة ٧٤٩/١٣٢- ٧٥٠، فلا بد أنّه انتقل إليها قبل سقوط دولتها، ولكنها كانت مضطرباً للحروب بين مروان بن محمّد وخصومه من الأمويين والعبّاسيين والشّيعة، أو لعله هجر الكوفة قبل ذلك بعد ثورة زيد سنة ٧٣٩/١٢١ أو ثورة عبد الله بن معاوية سنة ٧٤٣/١٢٦- ٧٤٤، وكلّ هذه الافتراضات تزيد الأمر اضطراباً ثمّ نجده صوفياً لأنّه يلبس الصّوف في رأي الحاج معصوم علي ونجده لا يلبسه في رأي صاحب أصول الدّيانات وإنما سمي بالصّوفي على وجه تسمية جابر بن حيان به، ثمّ إذا هو شيعي غال -ما دام يؤمن بالحلول- ثمّ دعا به إلى نفسه في الشّام، وذلك أمر لا يصدق، ثمّ إنّ قول سفيان الثّوري: «لولا أبو هاشم ما عرفتُ دقائق الرّياء» يوحي بأنّه لم يلبس الصّوف الّذي كان يدل على الزّهاد في الكوفة، وكون الرّجل ناهياً على الرّياء يعني البعد عن التّظاهر بالزّهد أي البعد عن لبس الصّوف

(١) هو أبو بكر عبد الرّحمن بن عمر الصّوفي «توفي سنة ٩٨٦/٣٧٦- ٧» صاحب «صور الكواكب» المطبوع في حيدر أباد، في المتحف البريطاني بلندن نسخة منه مخطوطة تحت رقم Add. 1488.

(٢) نفحات الأنس ص٣١، ولمزيد من المعلومات انظر ترجمة أبي هاشم في حلية الأولياء ٢٢٥/١٠.

(٣) الإسلام والحضارة العربية ٣١/٢.

(٤) طرائق الحقائق ١٠١/١.

(٥) طرائق الحقائق ١٠١/١.

الّذي هو مظهر الزّهد الخارجي، ومهما يكن الأمر فإنّ من الواضح أنّ المراد بإسباغ وصف الصّوفي على أبي هاشم هو أن يكون بالكوفة صوفي شيعي وبالشّام صوفي أموي -ولعل ذلك مراد الأستاذ كرد علي- كما يبدو من معاصرة أبي هاشم لجابر بن حيان الّذي اعتبر تلميذاً لإمام الشّيعة جعفر الصّادق، وكلا الصّوفيين على كلّ حال كوفي، ولعل أمر المعارضة قد نسي الآن بعد أن زالت دولة الأمويين في هذا الوقت وبقي منه الدّلالة على الزّهد فقط

ويظهر من كلّ ما دار حول أبي هاشم أنّ أخباره كانت قليلة وهي في اضطرابها تعدل الأخبار الواردة عن جابر بن حيان أو تزيد، ولكن أبا هاشم على كلّ حال كان معاصراً لجعفر الصّادق أيضاً أي معاصراً لجابر بن حيان، ويسميه الشّيعة مخترع الصّوفية[1]، وينقلون عن الصّادق أنّه قال فيه: «إنّه فاسد العقيدة جداً وهو ابتدع مذهباً يقال له التّصوف وجعله مقراً لعقيدته الخبيثة»[2]، كلّ ذلك لينفوا أن يكون التّصوف من اختراع شيعي وذلك أمر يدل على محاولة التّنصل من مسؤولية لم تمحص نتائجها ولا أغراضها، ولعل أبا هاشم الصّوفي -بعد- هو خالد بن يزيد بن معاوية الّذي مارس صناعة الكيمياء، وكان يكنى بأبي هاشم أيضاً «الطّبري ١٦/٧»، ولعله سمي بالصّوفي أو الكوفي على أساس اشتهار الكوفة بتلك الصّناعة من قديم، وقد مر بنا ذلك في فصل جعفر الصّادق.

عبدك الصّوفي:

أمّا الزّاهد الكوفي الثّالث الّذي سمي بالصّوفي فهو عبدك [= عبد الكريم] الّذي يذكر الدّكتور قاسم غنى نقلاً عن ماسينيون أنّه كان آخر شيوخ فرقة نصف شيعية صوفية تأسست في الكوفة وظهرت كلمة «صوفية» في آثار المحاسبي والجاحظ اسماً لها، وأنّ عبدك هذا كان رجلاً منزوياً زاهداً توفي في بغداد في حدود سنة ٢١٠/٨٢٥- ٨٢٦[3]، وقد ذكر ماسينيون أنّ عبدك هو أوّل من أطلق عليه اسم الصّوفي وكان يطلق في ذلك الحين على بعض زهاد الكوفة من الشّيعة وعلى مجموعة من الثّائرين في الإسكندرية[4]، وينقل ماسينيون عن الحمداني أنّ أوّل من سمي ببغداد «لا الكوفة» بهذا الاسم عبدك الصّوفي وهو من كبار المشايخ وقدمائهم وكان قبل بشر بن الحارث الحافي والسّري بن المغلس السّقطي[5]، ويخبرنا الملطي أنّ عبدك كان رأس فرقة من الزّنادقة الّذين «زعموا أنّ الدّنيا كلّها حرام محرم لا يحل الأخذ منها إلا القوت من حيث ذهب أئمة العدل، ولا تحل الدّنيا إلا بإمام عادل وإلا فهي حرام، ومعاملة أهلها حرام، فحل لك أن تأخذ القوت من الحرام من حيث كان»[6].

وذكر السّمعاني أنّ اسم عبدك هو عبد الكريم، وأنّ حفيده محمّد بن علي بن عبدك الشّيعي كان مقدم الشّيعة[7]، وهكذا يبدو عبدك جامعاً لاتجاهات عديدة مختلفة نابعة من التّشيع الممتزج بالزّهد المتأثر بظروف الكوفة الّتي انتقل منها كثير من سكانها إلى بغداد بعد أن صارت عاصمة للدولة الجديدة، والمهم في شأن عبدك أنّه أوّل كوفي يطلق عليه اسم صوفي بعد انتقاله إلى بغداد، ويبين لنا الدّكتور قاسم غنى أنّ «كلمة صوفي -على هذا الأساس- شاعت في الكوفة أوّلاً، ثمّ لقيت اهتماماً كبيراً بعد هذا التّاريخ بخمسين سنة، ويضاف إلى ذلك أنّ المقصود بهذا التّاريخ أنّ المتصوفة كانت تجمع تحت لوائها عارفي العراق وتقابلها كلمة ملامتية الّتي تطلق على عارفي خراسان، وقد زال هذا الفرق منذ القرن الرّابع وصار يقصد بالصّوفية كلّ عارفي المسلمين»[8].

أمّا بعد فإنّ نتيجة هذا كلّه أنّ كلمة «صوفي» الّتي قطع الباحثون المحدثون بصدورها عن الصّوف قد صارت كذلك لأنّ الصّوف قد عم زهاد الكوفة نفسها حيث ظهرت هذه الكلمة أوّلاً، وقد اشتق التّصوف من الصّوف، وقد رأينا أنّ لبس الصّوف قد نبع من بيئة الكوفة الّتي عرفت بتمسكها بالتّشيع ومعارضتها وحربها بالسّيف أو بالقول أو بالقلب لمن نكل بالأئمّة العلويين، وذلك -إذا صح- يقطع بأنّ التّصوف في أصوله الأولى كان متصلاً بالتّشيع، وسنرى أنّه هذه البذور الزّهدية الّتي صبت في التّصوف فيما بعد ستضاف إليها بذور أخرى مختلفة الألوان من البصرة والشّام وخراسان ليستكمل التّصوف ملامحه بعد انتقاله إلى بغداد ونضجه فيها.

(١) طرائق الحقائق ١٠١/١.

(٢) الرّسالة الاثنا عشرية في رد الصّوفية لمحمّد بن الحسن بن الحر العاملي مخطوط المتحف البريطاني بلندن ورقة ١٩ب.

(٣) تاريخ تصوف در إسلام، ص٤٢.

(٤) مجموعة نصوص تتعلق بالتّصوف، ص١٠- ١١.

(٥) أيضاً ص١١.

(٦) التّنبيه والرّد على أهل الأهواء والبدع، للملطي: أبي الحسين محمّد بن أحمد بن عبد الرّحمن الشّافعي «ت ٣٧٧/٩٨٧» تحقيق محمّد زاهد الكوثري، مصر ١٣٦٠/١٩٤٩، ص٩١، وهذا الكتاب مليء بالأخطاء التّاريخية ويروي مؤلفه عن رجال من الوضاعين «انظر: ص٥، ٢٢»، وانظر كتاب المكاسب ضمن كتاب المسائل في أعمال القلوب والجوارح، والمكاسب، والعقل، للحارث بن أسد المحاسبي، بتحقيق عبد القادر أحمد عطا، مصر ١٩٦٩، ص٢١٢.

(٧) الأنساب للسمعاني «عبد الكريم بن محمّد، ت ٥٠٦هـ/١١١٢م» نسخة مصورة نشر مرجليوث، لندن ١٩١٢، ورقة ٣٨٠ب.

(٨) تاريخ تصوف در إسلام، ص٤٢.

انتظام الزّهد في الكوفة:

فإذا عدنا إلى الكوفة من جديد وجدنا الزّهد قد انتظم قليلاً وكوّن له مدرسة بسيطة لها رئيس هو سفيان الثّوري، «الّذي ولد سنة ٩٧/٧٦٥- ٧٦٦» في خلافة سليمان بن عبد الملك الّذي أشاع في النّاس لبس الخز وحضهم عليه، وقد بدأ بسفيان الثّوري دور جديد هو الهدوء الّذي سيتأدى إلى الزّهد الهادئ والصّمت بعد البكاء والاتجاه إلى التّفكير بدل الهرب منه، وقد كان أحد زملاء سفيان يقول له: أرى النّاس يقولون سفيان الثّوري وأنت تنام الليل، فقال: «اسكت ملاك هذا الأمر التّقوى»[١]، ولكنه مع ذلك كان زاهداً في لباسه إلى أقصى حد، وقد رآه علي بن ثابت في طريق مكة فقال: «قومت كلّ شيء عليه حتّى نعليه درهماً وأربعة دوانيق»[٢]، وتبدأ بساطة المجاهدة عند سفيان الثّوري أيضاً، ولكنها ما زالت لاصقة بالليل حين تخطر الأشباح في الكوفة: مدينة المعاصي والعذاب والموت، وكان سفيان يقول لمن سأله أخبرنا كيف تصنع أنت في الليل؟ «لها عندي أوّل الليل نومة، تنام ما شاءت لا أمنعها، فإذا استيقظت فلا أقيلها»[٣]، وقد ظهر من سفيان اتجاه زهدي جديد يسد عليه الفراغ الّذي يملأ حياة الزّهد والخوف، فانقطع إلى العلم انقطاعاً تاماً عالله لنا بشر الحافي «المتوفى سنة ٢٢٨/٨٤١- ٨٤٢» بأنّ «طلب العلم إنما يدل على الهرب من الدّنيا ليس على حبها»[٤]، وذلك يذكرنا بجعفر الصّادق وأبيه محمّد الباقر اللذين انقطعا إلى العلم بعد أن قتل آباؤهما وأبناء عمومتهما ورأوا الرّاحة من هذا العناء بإطراح الطّموح المادي وتركيز الهم والجهد في العلم وطلبه، وتلك خدمة تسدى إلى الإسلام دين جدّهم، وقد ظهر لسفيان أمر بعد أن علم أشياء كان يجهلها فزاد حزنه وكثر ندمه على هذا العلم الغزير الّذي فتح عينيه على الحقيقة المؤلمة، فقد كان يقول: «لو لم أعلم لكان أقل لحزني»[٥]، وهذا هو الفرق بين الإمام الشّيعي الّذي تزيد طمأنينته وصفاء نفسه كلما توغل في العلم وبين غيره من أمثال سفيان الثّوري الّذي فسر طلبه للعلم بقوله: «ليس طلب الحديث من عدة الموت، لكنه عدة يتشاغل بها الرّجل»[٦]، وزاده وضوحاً بقوله: «إنّ هذا الحديث عز، من أراد الدّنيا فدنيا ومن أراد الآخرة فآخرة»[٧]،

(١) صفة الصّفوة ٣/٧٣.
(٢) صفة الصّفوة ٣/٨٥.
(٣) صفة الصّفوة ٣/٨٥.
(٤) حلية الأولياء ٨/٣٤٧.
(٥) كتاب الجرح والتّعديل لابن أبي حاتم «ت ٣٢٧/٩٣٨- ٩٣٩»، التّقدمة، حيدر أباد ١٩٥٢، ص٦٢، صفة الصّفوة ٣/٨٣.
(٦) حلية الأولياء ٦/٢٦٤.
(٧) أيضاً ٦/٣٦٦.

وقد كان سفيان يتنقل في البلدان كثيراً ولا يقيم في بلد بعينه ولذلك صلة كما يبدو من ثقافته الواسعة بالسّياحة المسيحية، فكان لا يستقر في بلد بعينه مع علمه بأنّ ما يفعله بدعة صريحة، وقد كان معاصره الرّبيع بن أبي راشد يقول: «لولا أن تكون بدعة لسحت أو همت في الجبال»[٨]، وقد علل سفيان الثّوري سياحته تعليلاً غريباً ووصل ذلك باستجلاب صفاء الفكر وتصور النّعيم الأخروي بعد أن ليم في ذلك فروى أنّه «اقتحم على أهل الجنة نور في قبابهم كاد أن يخطف نوره أبصار القوم، فإذا نور سن حوراء ضحكت في وجه وليها [يقصد نفسه]، فما كنت أدع هذا الخير أبداً لقولك»[٩]، وقد كانت سياحته سياحة عزلة، المطلوب منها التّفرغ إلى التّأمل والتّفكر لأنّ رأيه كان منصرفاً إلى أنّ «من خالط النّاس داراهم، وما داراهم راءاهم ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه، فهلك كما هلكوا»[١٠]، وذلك ترديد لمقالة جعفر الصّادق الّتي يرويها سفيان نفسه عنه أنّه قال: «عزت السّلامة حتّى لقد خفي مطلبها، فإن تكن في شيء فيوشك أن تكون في الخمول»[١١].

وقد اعترف أهل البصرة لسفيان بالفضل والعلم[١٢] وكان انتقل إليها في أخريات أيّامه «من سنة ١٥٥/٧٧٣ إلى سنة ١٦١/٧٧٧- ٧٧٨»، وصار للزهاد شيخاً وصاروا له مريدين إلى حد أنّ إبراهيم بن أدهم نفسه قد اعترف بولايته وإمامته على الزّهاد جميعاً حتّى إنّه رجا سفيان ألا يقف عند الصّخرة بعد أدائه الصّلاة في صحن المسجد الأقصى لئلا يراه النّاس -ولعل إبراهيم يعني الزّهاد- فتكون سنة لهم[١٣].

والغريب أنّ سفيان قد وافق إبراهيم على ذلك ولم يعترض عليه، ويتوثق ذلك بأنّ سفيان كان يحضر موت الزّهاد -بوصفه شيخاً لهم- ويخفف عنهم[١٤]، بل يبدو أنّه كان يجمع أموالاً ينفقها مما يروى عنه من قوله: «ما بقي أحد يدفع به عن أهل الكوفة إلا ابن سوقة «محمّد»[١٥]، كان عنده عشرون ومائة ألف «درهم» فقدمها»[١٦]، وقد كان سفيان يرمى بالعجب[١٧] وطلب الشّهرة كما اتهم المتصوفة بعدئذ.

(٨) أيضاً ٥/٧٧.
(٩) حلية الأولياء ٦/٣٧٤.
(١٠) قوت القلوب، مصر ١٩٦١، ١/٢٠٥.
(١١) صفة الصّفوة ٢/٩٦.
(١٢) حلية الأولياء ٦/٦٠- ٧٢.
(١٣) أيضاً ٨/٥٠.
(١٤) صفة الصّفوة ٢/٩٦.
(١٥) أيضاً ٣/٦٥.
(١٦) حلية الأولياء ٦/٣٤.
(١٧) الجرح والتّعديل، التّقدمة، ص٥٧، وقد ورد فيه هنا وصف سفيان الثّوري بمحدث العرب وفقيه العرب، وقد فضّله ابن حنبل على مالك، ص٥٩.

وقد جمع سفيان إلى مشيخته للزهاد وولايته احترام أصحاب الحديث وحامليه وكان لهم شيخاً إلى حد أنّ الشّعراني يروي أنّه سمي بأمير المؤمنين في الحديث[1]، ولا عبرة بتحديد الإمارة بالحديث فقط فإنّ سفيان الثّوري الّذي نشأ في بيئة الغلاة والمتنبئين والمؤلهين للأئمّة وخالط الأئمّة أنفسهم لا يبعد أن يكون قد شعر بالولاية بنفسه، ويؤيد ذلك أنّ قبيلته كانت مشهورة بأنّها «كثيرة المشايخ والفقهاء والمتعبدين»[2]، وقد جاء في سيرة الربيع بن خثيم أنّه «كان في بني ثور ثلاثون رجلاً ما منهم رجل دون الرّبيع»[3]، وبذلك يتبين لنا أنّ أسرة جديدة قد تولت بث مذهب جديد هو الزّهد الموازي للتشيع الغالي كما فعل بنو عجل من قبل.

وكان سفيان نفسه زيديّاً وناصر محمّد بن عبد الله بن الحسن الثّائر بالمدينة وبايع له كما مر بنا، وكان السّلطان يطلبه لذلك، ولكنه لم يشارك في القتال لأنّه آثر السّلم كما يقضي مبدأ الزّهاد بذلك، وآية ذلك أنّه لام زاهدين هرباً من الكوفة إلى البصرة متنكرين في زي الحمالين ولم يكلم أحداً منهما على ذلك حتّى مات[4].

والظّاهر أنّ ميل سفيان إلى المذهب الزّيدي آت من أنّ عقيدة الزّيدية تقضي بأنّ الإمام ليس معصوماً وليس أعلم المسلمين ولا يتميز عنهم إلا بأنّه علوي فاطمي يصلح لإمامة المسلمين، أمّا التّفوق في العلم فميسر لمن انقطع إليه، ويجب أن نكرر هنا أنّ هذه النّظرية الزّيدية هي الّتي فتحت للزهاد باب الولاية وأثارت في نفوسهم الطّموح إليها، فما دام المجال قد انفتح أمام المسلم بعمله وجهده لا بتوقيف ونص إلهيين، فقد زال الحاجز الّذي كان يطامن من غلواء الزّهاد فرأينا سفيان نفسه يجرؤ على لوم الإمام الصّادق على لبسه الخز، وكان عيسى بن زيد بن علي يحتكم إليه[5] «أي سفيان».

وكان من ثقة سفيان في مكانته في الزّهد أنّه سلم على المهدي الخليفة تسليم العامة[6]، والمهم أنّ ابن النّديم قد أيد زيدية سفيان فنقل عن محمّد بن إسحق أنّ أكثر علماء المحدثين زيدية وذكر سفيان الثّوري في فقهاء المحدثين الزّيديين[7].

(١) طبقات الشّعراني ٤٠/١.
(٢) طبقات ابن سعد ١٢٩/٦.
(٣) طبقات ابن سعد ١٢٩/٦.
(٤) مقاتل الطّالبيين ص٢٥٦.
(٥) أيضاً ص٤١٥.
(٦) تاريخ المسعودي ٢٥٤/٢.
(٧) الفهرست ص٢٥٣.

داود الطّائي:

ويأتي بعد سفيان الثّوري داود الطّائي «المتوفى سنة ٧٨١/١٦٥– ٧٨٢» ودخل اسمه في قائمة الزّهاد الصّوفيين وهو الصّلة بين الكوفة وبغداد، وكان داود الطّائي كسفيان تعلماً، وقد أخذ علمه عن أبي حنيفة[8] الّذي ناصر محمّد بن عبد الله بن الحسن الثّائر الزّيدي ومات في السّجن لتمسكه ببيعته، فلما أتم داود تعلمه قال له أبو حنيفة: بقي العمل به، فنازعت داود نفسه إلى العزلة والوحدة[9]، وزاد تأثير النّساك في داود حتّى رأيناه يتخذ التّبتل منهجاً لحياته ومظهراً لها، فبقي أربعاً وستين سنة أعزب، وقد علل ذلك بقوله: «قاسيت شهوتهن عند إدراكي سنة ثمّ ذهبت شهوتهن من قلبي»[10]، فداود إذن أوّل زاهد دخل في زهده العامل المسيحي واضحاً، وقد سبقه سفيان الثّوري إلى السّياحة والتّجول، وترد في سيرة داود أوّل إشارة إلى كونه شيخاً لمريد آخر، فإنّ العطاء يذكر أنّه كان شيخ طريقه الرّاعي[11] ويذكر الجامي أنّه من أقران الفضيل وإبراهيم بن أدهم[12]، وهذه رائحة التّصوف ترد من الكوفة إلى بغداد، وقد زادت الولاية وضوحاً في داود بحيث كان النّاس يقصدونه وينتظرونه أيّاماً ليلقوه ويسمعوا منه[13]، وكان محصول القاصد «صم الدّنيا واجعل فطر الموت، فر من النّاس فرارك من الأسد غير طاعن عليهم ولا تارك لجماعتهم»[14]، ولم يطق داود أن يخرج عن صمته أكثر من ذلك فوثب إلى المحراب وقال: الله أكبر[15].

وقد انتظمت عند داود مسألة الزّهد في الطّعام والإعراض عن زخرف الدّنيا، فكان يقول: «إذا كنت لا أشرب إلا بارداً ولا آكل إلا طيباً ولا ألبس إلا ليناً فما أبقيت لآخرتي؟»[16]، وداود بهذا قد ابتعد عن بساطة الزّهد الأوّل واقترب كلامه من كلام المتصوفة وبدا زهده زبدة ميراثه من أحداث الكوفة وعبرها، وظهرت في دواد ظاهرة أخرى جديدة هي التّفكير والتّأمل والتّركيز والبعد عن الهرب بالعلم أو بالبكاء، فقد روى عنه معاوية بن عمر أنّه قال: «كنا عند داود الطّائي يوماً فدخلت الشّمس من الكوة، فقال بعض من حضر: لو أذنت لي سددت

(٨) صفة الصّفوة ٧٣/٣.
(٩) أيضاً ٧٤/٣.
(١٠) طبقات الشّعراني ١٨٥/١.
(١١) تذكرة الأولياء ١٨٥/١.
(١٢) نفحات الأنس ص٤٢.
(١٣) صفة الصّفوة ٧٤/٣.
(١٤) أيضاً ص٦٥/٣.
(١٥) أيضاً ص٦٥/٣.
(١٦) طرائق الحقائق ٣٧/١.

الكوة، فقال: كانوا يكرهون فضول النّظر، وكنا عنده يوماً فإذا بفروه قد تمزق وخرج خمله فقال بعض من حضر: لو أذنت لي خيطته فقال: كانوا يكرهون فضول الكلام»[١]، وبذلك يبدو أنّ داود الطّائي أوّل شيخ يلتف حوله المريدون ويسمعون منه ويبلغون عنه لا تعلماً كما فعل هو بل مراقبة وأخذاً عن أعماله مما سيكون منهجاً للصوفية من بعده، وقد بقيت في داود ظاهرة كوفية بارزة هي استحبابهم طول النّزع، وقد طال نزع داود[٢] فدل ذلك على رضي الله عنه لأنّ عذاب الدّنيا ينقص من عذاب الآخرة، وبقيت في داود ظاهرة أخرى من رواسب الزّهد البسيط هي اتصال الزّهد بالأئمّة، فقد أوردنا في تعرضنا للصادق أنّ داود طلب المشورة منه وقال له: يا بن رسول الله إنّكم أفضل الخلق، والمشورة منكم واجبة[٣].

الفضيل بن عياض:

ويأتي الفضيل بن عياض ليزيد الزّهد صلة بالتّصوف الّذي سيبدأ عما قليل، وأصحاب السّير حائرون في أصله، فقوم يجعلونه خراسانياً من مرو[٤]، وقوم يرونه مولوداً في سمرقند ناشئاً في أبي ورد[٥] وقوم يعدونه مصرياً[٦] وفريق بخاري الأصل[٧] وآخرون يعتبرونه من الكوفة[٨] بل لقد رأوه عربياً تميمياً[٩] ولكنهم متفقون على أنّه مات بمكة «سنة ٨٠٣/١٨٧»، وقصة توبته هي الّتي تفضح أصله وهي أسطورية من جنس القصص الّتي تروى عن توبة الخراسانيين الّتي يبدأ بعدها زهدهم والتّوبة جديدة على الزّهد الكوفي بل لم نجدها في الكوفة ولم يشر إليها أحد، وإنما هو الزّهد طول الحياة لأنّ الجو مشبع بروحه ولم يكن عملاً فردياً يقوم على مطالب الحياة المادية أو الجنسية كما تعكس لنا قصة توبة الفضيل الّتي تروي أنّه «كان يعشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدار إليها سمع تالياً يتلو القرآن: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ**﴾[١٠]، فقال: يا رب قد آن فرجع»[١١]، وصلة الفضيل بالكوفة آتية من أنّه نزلها في تجوله فسمع الحديث

(١) صفة الصّفوة ٣/٧٤.
(٢) صفة الصّفوة ٣/٧٤.
(٣) تذكرة الأولياء ١/١٢.
(٤) طبقات الشّعراني ١/٥٨.
(٥) الرّسالة القشيرية ص٩.
(٦) الفهرست ص٥٠٠.
(٧) نفحات الأنس ص٣٨.
(٨) نفحات الأنس ص٣٨.
(٩) صفوة الصّفوة ٢/١٥٤.
(١٠) الحديد ٥٧: ١٦.
(١١) الرّسالة القشيرية ص٩.

وانتقل إلى مكة ومات بها سنة ٨٠٣/١٨٧[١٢]، وكان في الفضيل مظهر آخر لم يكن للكوفيين به عهد وذلك أنّه كان يغشى عليه لدى سماعه صفة النّار[١٣] فإنّ ذلك لم يصادفنا في الكوفة، ولذلك فالفضيل زاهد خراساني يحمل صفات الزّهد الخراساني ولكنه نزل الكوفة وتأثر بزهدها وصدر عن روح كوفية[١٤] ممزوجة بهذه الرّوح الخراسانية المبالغة في الحساسية العاطفية حين قال: «لو خيرت أن أعيش كلباً ولا أرى يوم القيامة لاخترت أن أعيش كلباً وأموت كلباً ولا أرى يوم القيامة»[١٥]، وقد كان في الفضيل ولاية ظاهرة قرنها بحمل القرآن وتطلب من حامله ألا «يكون له إلى الخلق حاجة: لا إلى الخلفاء فمن دونهم، وينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه»[١٦]، وتلك ولاية تقرب من الإمامة، ولعله قد استفادها من الكوفة الشّيعية، وهو الّذي روى أحاديث «أزرى فيها على عثمان»[١٧]، وقد اعتذر البغدادي عنه بأنّه «روى ما سمع، فكان ماذا؟»[١٨]، وقد روي عن الصّادق حديثاً في تحديد معنى الورع من النّاس وأنّه «الّذي يتورع من محارم الله ويجتنب هؤلاء..»[١٩].

ويتبين -بعد- هذا الفرق بين الزّهد الكوفي والخراساني مما رأينا طرفاً منه عند الفضيل الّذي بدا زهده مختلفاً اختلافاً ظاهراً عن زهد الكوفيين.

فرقد السّبخي:

قبل أن ندخل في تفاصيل زهد فرقد يهمنا أن نصحح خطأ طالما وقع فيه الباحثون، ذلك أنّهم يلقبونه بالسّنجي «بالنّون والجيم» والواقع أنّه السّبخي «بالباء والخاء» نسبة إلى سبخة

(١٢) صفة الصّفوة ٢/١٣٤.
(١٣) راجع المشتبه في أسماء الرّجال، وميزان الاعتدال ٢/٣٢.
(١٤) صفة الصّفوة ٢/١٣٥.
بعد كتابة هذه الفقرة، وجدنا في طبقات ابن سعد ترجمة للفضيل بن عياض تناسب ما توصلنا إليه، لقد نص ابن سعد على أنّه: «الفضيل بن عياض التّميمي ثمّ أحد بني يربوع، ويكنى أبا علي ولد بخراسان بكورة أبي ورد «أبيورد» وقدم الكوفة، وهو كبير، فسمع من منصور بن المعتمر وغيره، ثمّ تعبد وانتقل إلى مكة إلى أن مات بها سنة ٨٠٣/١٨٧م في خلافة هارون الرّشيد، وكان ثقة ثبتاً فاضلاً عابداً ورعاً كثير الحديث»، «طبقات ابن سعد ٥/٣٦٦»، وروى الذّهبي أنّه ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد «تذكرة الحفاظ ٤/٢٤٦».
(١٥) حلية الأولياء ٨/٨٤.
(١٦) أيضاً ٨/٩٢، وقد وصفه ابن المبارك، الزّاهد البصري الآتي ذكره بقوله: ما بقي على ظهر الأرض أفضل من الفضيل بن عياض.
(١٧) ميزان الاعتدال للذهبي ٢/٣٣٤.
(١٨) ميزان الاعتدال للذهبي ٢/٣٣٤.
(١٩) معاني الأخبار ص٢٥٢- ٢٥٣.

البصرة الّتي سكنها كما يخبرنا السّمعاني[1] والفيروز آبادي[2] كما يضبطه ابن الجوزي[3] والمناوي[4] وابن العماد[5]، أمّا البغدادي والذّهبي فينسبانه إلى سبخة الكوفة، ويمثل فرقد ناحية أخرى من أصالة الزّهد في الكوفة فإنّ نزوحه في فجر زهده إلى البصرة فقد أثر في زهده بحيث صبغه بالهجنة الّتي جاءته من بيئة البصرة المقلدة، فقد انفرد فرقد من بين الكوفيين جميعاً بتبنّيه الإسرائيليات في الزّهد فكان يسرف في رواية نصوص عن التّوراة أو عن بني إسرائيل وربما تطرق إلى ذكر المسيح، وكان ذلك أمراً عجيباً حقاً، وكان حتّى في كلماته ونفسه غريباً، فإنّه لم يعبر إلا عن تفضيل الجوع، أمّا باقي موضوعات الزّهد فكان يسندها بالنّصوص المستخرجة من الكتب المقدسة القديمة، والمشهور عندنا أنّ النّبي (ﷺ) قد قال: الجوع كافر، أمّا فرقد السّبخي فقد كان يقول: الشّبع أبو الكفر[6]، فكان بذلك يعبر عن زهد صادر عن نسبة الفساد وخراب الذّمم إلى الغنى والشّبع اللذين يورثان البطر والكبر، ويتضح من ذلك أنّ فرقداً لم يكن ذا صلة بالأحداث السّياسية، أو لعله نظر إليها نظرته إلى مورد للمال الحرام، ولعل ذلك صحيح ولكن لم يبد من أقواله ما يشير إلى اتصال زهده بالأحداث الحربية والعذاب الرّوحي اللذين كانا يستغرقان الكوفة، وذلك يعني أنّه أمضى معظم حياته في البصرة مع كونه كوفي الأصل برواية الشّعراني والمناوي[7]، بل يبدو أنّ فرقداً كان يتحرز من التّعبير الذّاتي المباشر إما لخوف أو لشك في قدرته على التّعبير وفضل التّعبير غير المباشر، فاستشهد لكل حالة أمضته بنص من النّصوص المقدسة القديمة، وذلك يدل على أنّ من المحتمل أنّه كان لا عربياً ولا فارسياً ولعله كان من أنباط العراق بل إنّ السّمعاني يخبرنا مصيباً كما يبدو، بأنّه كان من أهل أرمينية[8]، وقد مر بنا أنّه استشهد بنص روي عن النّبي وعلي بن أبي طالب وزعم أنّه وارد في التّوراة، وذلك هو: «من أصبح حزيناً على الدّنيا أصبح ساخطاً على ربه عزّ وجل، ومن جالس غنياً فتضعضع له ذهب ثلثا دينه، ومن أصابته مصيبة فشكا إلى النّاس فإنّه يشكو ربه»[9]، وقد روي عن المسيح (عليه السلام) أنّه قال: «طوبى للناطق في آذان قوم يسمعون كلامه، ما تصدق رجل بصدقة أعظم أجراً من موعظة قوم يصيرون بها إلى الجنة»[10]، فكأنه هنا يشكو إعراض النّاس عن سماع حديثه، ويخبرنا المناوي إلى ذلك أنّه قد «شغله التّعبد عن حفظ الحديث»[11]، ولكنه لم ينشغل عن حفظ أحاديث السّيد المسيح وقراءة التّوراة والاقتباس منها فكان من نتيجة ذلك أن «أعرض النّقلة عن نقل حديثه»[12]، وقد صنف فرقد الخطايا لا من نفسه ولكن من التّوراة أيضاً فقال: «في التّوراة أمّهات الخطايا ثلاث: الكبر والحسد والحرص، فنشأ من الثّلاث ست فصارت تسعاً: الشّبع والنّوم والرّاحة وحب المال وحب الجماع وحب الرّياسة»[13]، بل لقد كانت مواعظه لإخوانه البصريين منعكسة عن رؤى إسرائيلية يراها في المنام، فقد كان يلوم البصريين ويقول لهم: «يا أشباه اليهود كونوا على حياء من الله، فإنكم لم تشكروا إذ أعطاكم ولم تصبروا حين بلاكم»[14]، وهكذا يضرب فرقد السّبخي مثلاً واضحاً في دخول الثّقافة إلى الزّهد وطبعه بطابعها الخاص بحيث رأيناه ينشغل عن رواية الحديث الّذي كان شغل معاصريه الشّاغل وينصرف إلى رواية أحاديث المسيح ونصوص التّوراة، والغريب أنّ فرقداً صار من القلائل النّادرين الّذين اعتبروا عند المتصوفة من أصول التّصوف ودخلوا في سلاسله، ويبقى بعد ذلك أن نذكر أنّه توفي بالبصرة «سنة ١٣١/٧٤٨- ٧٤٩» وقد أخرنا ذكره لنبين كيف كانت أصالة الكوفة نابعة من بيئتها ذات الطّابع الخاص وكيف تتبدد هذه الأصالة إذا تحول زاهد منها إلى بيئة أخرى تغلب عليها الهجنة والتّقليد؟

الفتوة الكوفية:

لقد كان من أثر الحروب والاضطهاد والرّوح العسكرية الّتي سادت الكوفة أن برز قوم من الزّهاد بخلق الفرسان على صورة زهدية جوهرها التّضحية المقرونة بالعاطفة الرّقيقة

(١) الأنساب «ظهر الورقة ٢٨٨»، و«سبخ» بنص السّمعاني «ورقة ٣٠٣ أ» من قرى مرو على سبعة فراسخ منها.
(٢) القاموس المحيط ٢٦١/١.
(٣) صفة الصّفوة ١٩٥/٣.
(٤) الكواكب الدّرية ١٤٧/١.
(٥) شذرات الذّهب ١٨١/١، وعلل عز الدّين بن الأثير «أبو الحسن علي بن علي بن محمّد، ٥٥٥- ٦٣٠هـ/١١٠٦- ١٢٣٣م» ذلك بأنّه «انتقل إلى البصرة [من أرمينية] وكان يؤوي إلى السّبخة بها، فنسب إليها» «اللباب في تهذيب الأنساب، مصر ١٣٥٧م، ٥٢٨/١».
(٦) الكواكب الدّرية ١٤٧/١.
(٧) طبقات الشّعراني ٣٢/١.
(٨) الأنساب: ظهر الورقة ٢٨٨.
(٩) صفة الصّفوة ١٩٦/٣.
(١٠) الكواكب الدّرية ١٤٧/١.
(١١) حلية الأولياء ١٤٧/١، وقد وردت لفرقد بن يعقوب السّبخي ترجمة قصيرة في طبقات ابن سعد «٧: ١١/٢» هذا نصها:
ويكنى أبا يعقوب وكان ضعيفاً منكر الحديث، وقال سليمان بن حرب عن حماد بن زيد: قال: سألت أبا أيوب عن فرقد فقال ليس بصاحب حديث، قالوا مات فرقد أيّام الطّاعون بالبصرة.
(١٢) الكواكب الدّرية ١٤٧/١.
(١٣) الكواكب الدّرية ١٤٧/١.
(١٤) الكواكب الدّرية ١٤٧/١.

والبعد عن الطّمع المادي والانصراف إلى الزّهد والفقر، وقد ظهرت بوادر الخلق الّذي ينسب إلى الفتوة من سعيد بن جبير «الّذي قتله الحجاج سنة ٧١٢/٩٤- ٧١٣»، وكان سعيد يقول «لدغتني عقرب فأقسمت على أمّي أن أسترقي فأعطيت الرّاقي يدي الّتي لم تلدغ وكرهت أن أحنثها»[١]، وسعيد بن جبير في ذلك يعكس التّوكل والرّضا على أوضح صورهما ويضرب لنا مثلاً واضحاً -وإن يكن بسيطاً- على بذور الفتوة الّتي أنشأتها ظروف الكوفة الحربية وأساليب القمع الّتي انتشرت فيها، وظهر في الكوفة مثل آخر على الفتوة الّتي أنبتتها بيئتها، وذلك أنّ إبراهيم التّيمي الزّاهد قد سلم نفسه لشرطة الحجاج على أنّه إبراهيم النّخعي فحبس من أجل ذلك[٢]، ولم يقتصر الأمر على أمثلة نتصيدها من أخبار الزّهاد وإنما يخبرنا ابن الجوزي بأنّ أصحاب الفتوة قد كان لهم لباس مخصوص كما كان للقراء لباسهم، ومن ذلك أنّ إبراهيم بن يزيد النّخعي -الّذي يضيفه ابن رستة إلى قائمة الشّيعة[٣]- كان «يلبس الثّوب المصبوغ بالزعفران وبالعصفر وكان من يراه لا يدري أمن القراء هو أم من الفتيان»[٤]، وبذلك يتضح أنّ الفتوة كانت مبدأ جماعة محدودة في الكوفة لها طابعها الخاص ولباسها المتميز ولا بد أن كان لها نظمها ومثلها وإن تكن ساذجة بسيطة، ولعلنا -بهذا الخبر الوارد عن ابن الجوزي- نقدم أقدم نص يشير إلى الفتوة الإسلامية بحسب ما سيكون لها من اتصال بالتّصوف، وليس ذلك على الكوفة بغريب، ولمعترض أن يلفت ذهننا إلى أنّ موطن الفتوة خراسان لا الكوفة، فالواقع أنّ ظروف الكوفة - على ما يبدو- هي المسؤولة عن ذلك، يضاف إلى هذا أنّ امتزاجاً تاماً قد حصل بين سكان الكوفة وخراسان، فكما كان بالكوفة حمراء الفرس كان في خراسان كثير من العرب وهذا البلاذري يحدثنا بأنّ معاوية أرسل عدداً كبيراً من عائلات الكوفة والبصرة إلى خراسان وأسكنهم فيها[٥].

ويخبرنا ابن عبد ربه الأندلسي أنّ الحجاج قد شتت الكوفيين في البعوث والمغازي وكان يرى أنّ ذلك أدوى دواء لدائهم[٦]، ويورد الشّيخ البراقي أنّ الأشعريين هاجروا من الكوفة وتوطنوا قم بعد أن قتل الحجاج رئيسهم محمّد بن السّائب الأشعري[٧].

ويزيد ولهاوزن الأمر وضوحاً بأنّ خراسان -ويعني بها مرو- كانت موجهة من الكوفة[٨]، بالنّسبة للدعاة الشّيعة «يعني العبّاسيين» وأنّه بعد «عام ٧١٨/١٠٠- ٧١٩» بزمن طويل ما فتئ الدّعاء في خراسان كوفيين فقط وهم تجار غرباء، ويذكر أنّ العرب في خراسان ذابوا في المجتمع الخراساني فلم يعودوا واضحين من بين الخراسانيين[٩]، ولكي ندلل على ما كان للكوفيين من أثر في غيرهم من المسلمين نذكر أنّ قبائل برمتها قد هاجرت إلى الشّام احتجاجاً على شتم عثمان، ولكن معاوية -برغم ذلك- لم يدعهم في الشّام بل عزلهم في الجزيرة مخافة إفساد أهل الشّام[١٠]، بل لقد أخرج الأمويون كلّ عراقي وجدوه في الحجاز وحذروا الحجازيين من إيوائهم[١١]، وبذلك يتضح أنّ نشوء الفتوة في الكوفة، وإن كان تأثر بما كان في خراسان منها، كان للظروف السّائدة فيها أثرها الكبير أيضاً في إخراجها إلى حيز الوجود.

وبذلك نختم البحث في الزّهد الكوفي الّذي خدم فكرة التّصوف بظهور مبدأ التّفكير فيه، وكان الصّوف الّذي اشتق منه التّصوف من ثمرات الزّهد الكوفي، وقد رأينا فكرة الولاية الكوفية الّتي نبعت من الإمامة أوّلاً وحركات الغلاة ثانياً آتية من الكوفة، بل لقد كانت فكرة الشّيخ والمريد نابعة من البيئة الكوفية عن طريق داود الطّائي، ورأينا أخيراً أنّ الفتوة نشأت في الكوفة متأثرة بالظّروف وبسبق الخراسانيين الّذين خالطوا الكوفيين إليها، لقد نبع كلّ ذلك من اللون الشّيعي الّذي كان يصبغ الكوفة ومن العاطفة الدّينية الّتي كانت تستغرق الكوفيين، ويحسن بنا أن نختم فصل الزّهد الكوفي بأنّ «الزّهري محمّد بن مسلم المتوفى سنة ٧٤١/١٢٤- ٧٤٢ قارف ذنباً فاستوحش من النّاس وهام على وجهه فقال له زيد بن علي: يا زهري، لقنوطك من رحمة الله الّتي وسعت كلّ شيء أشد عليك من ذنبك، فقال الزّهري: الله أعلم حيث يجعل رسالته، ورجع إلى أهله وماله وأصحابه»[١٢].

(١) صفة الصّفوة ٤٣/٣.
(٢) صفة الصّفوة ٤٧/٣.
(٣) الأعلاق النّفيسة ٢١٩.
(٤) صفة الصّفوة ٤/٣.
(٥) فتوح البلدان ٤١٠.
(٦) العقد الفريد ١٧٩/٥.
(٧) تاريخ الكوفة ص١٨٣.
(٨) الدّولة العربية وسقوطها ص٤٠٦.
(٩) الدّولة العربية وسقوطها ص٢٩٠.
(١٠) حركات الشّيعة المتطرفين ص٥١.
(١١) تاريخ اليعقوبي ٣٤/٣.
(١٢) البيان والتّبيين ١٥١/٣.

المصادر والمراجع

المخطوطات

* **الحر العاملي، محمّد بن الحسن «ت ١١٠٤/١٧٠٥م».**
– الرّسالة الاثنا عشرية في رد الصّوفية، المتحف البريطاني بلندن: «ضمن المخطوط Add 23260».
* **المناوي، عبد الرّؤوف «ت ١٠٣١هـ/١٦٢١م».**
– الكواكب الدّرية في تراجم السّادة الصّوفية، المتحف البريطاني بلندن: Add 23369.

المطبوعات

آ– الكتب العربية:

* **ابن أبي حاتم، أبو محمّد عبد الرّحمن بن محمّد بن إدريس التّميمي الرّازي «ت ٣٢٧هـ/٩٣٨م»:**
– الجرح والتّعديل، «التّقدمة» ط حيدر آباد ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
* **ابن الأثير، عز الدّين علي بن محمّد الشّيباني الجزري «ت ٦٣٠/١٢٣٢»:**
– الكامل في التّاريخ ط مصر ١٣٤٨هـ وليدن ١٨٧٠م.
– اللباب في تهذيب الأنساب، ط مصر ١٣٥٧هـ
* **ابن الجوزي، جمال الدّين أبو الفرج عبد الرّحمن بن علي البغدادي، «ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م»:**
– صفة الصّفوة، ط حيدر آباد، ١٣٥٥هـ
* **ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي الكناني «ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م»:**
– الإصابة في تمييز الصّحابة، مصر ١٣٢٨هـ
* **ابن خلدون، أبو يزيد عبد الرّحمن بن محمّد «ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥– ١٤٠٦»:**
– العبر وديوان المبتدأ والخبر «= التّاريخ، ط مصر».
* **ابن خلكان، أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن إبراهيم «ت ٦٨١هـ/١٢٨٣م»:**
– وفيات الأعيان، ط مصر ١٩٣٦ و١٩٤٨ و١٢٧٥هـ «حسب الطّبعة المثبتة في الحاشية».
* **ابن رستة أبو علي أحمد بن عمر «ت بعد ٢٩٠هـ/٩٠٠م»:**
– الأعلاق النّفيسة، ط ليدن ١٨٩١.
* **ابن سعد، محمّد الزّهري «ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م»:**
– الطّبقات الكبرى، ط ليدن ١٣٢٢– ١٣٣٩هـ/١٩١٧– ١٩٢٨م.
* **ابن عبد ربه الأندلسي، شهاب الدّين أحمد بن محمّد المرواني، «ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م»:**
– العقد الفريد، ط مصر ١٩٤٨– ١٩٥٣.
* **ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي.. «ت ١٠٨٩/١٦٧٨»:**
– شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، ط مصر ١٣٥٠.
* **ابن قتيبة الدّينوري، عبد الله بن مسلم «ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م»:**
– الإمامة والسّياسة، ط مصر ١٩٠٤.
* **ابن المرتضى، أحمد بن يحيى: الإمام الزّيدي «ت ٨٤٠هـ/١٤٣٧م»:**
– طبقات المعتزلة، ط بيروت ١٩٦١.
* **ابن النّديم، أبو الفرج محمّد بن إسحاق «ت ٣٨٥هـ/٩٩٥م»:**
– الفهرست، ط مصر ١٣٤٨هـ
* **أبو طالب المكي، محمّد بن علي «ت ٣٨٠ أو ٣٩٠هـ/٩٩٠ أو ١٠٠٠م»:**
– قوت القلوب، ط مصر ١٩٣٣.
* **أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمّد الأموي المرواني «ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م»:**
– الأغاني، «حسب الطّبعة المثبتة في الحاشية».
– مقاتل الطّالبيين، ط مصر ١٩٤٨.
* **أبو نعيم الأصفهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد «ت ٤٣٠هـ/١٠٣٩م»:**
– حلية الأولياء، مصر ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.
* **البراقي، السّيد حسين «ت ١٣٣١هـ/١٩١٣م»:**
– تاريخ الكوفة، تعليق: محمّد صادق بحر العلوم، ط النّجف، ١٣٥٦.
* **البلاذري، أبو جعفر أحمد بن يحيى البغدادي «ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م»:**
– أنساب الأشراف «الجزء الخامس»، ط القدس ١٩٣٦م.
– فتوح البلدان، ط مصر ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م.
* **الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر «ت ٢٥٥هـ/٨٨٩م»:**
– البيان والتّبيين، تحقيق حسن السّندوبي، ط مصر ١٩٤٧م.
* **جولدتسيهر، إجناتس:**
– العقيدة والشّريعة في الإسلام، ترجمة: محمّد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر، مطبعة الكاتب المصري، القاهرة ١٩٤٦م.
* **الخوانساري، محمّد باقر «١٢٢٦– ١٣١٥/١٨١١– ١٨٩٨»:**
– روضات الجنات، ط إيران ١٣٠٧هـ
* **الذّهبي شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان التّركماني المصري «ت ٧٤٨/١٣٤٧»:**
– ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، ط مصر ١٣٢٥.
* **السّلمي، أبو عبد الرّحمن محمّد بن الحسين بن موسى «ت ٤١٢/١٠٢١»:**
– طبقات الصّوفية، تحقيق محمّد عبد المنعم شريبة، ط مصر ١٩٥٣.

* **السّمعاني، أبو السّعيد عبد الكريم بن أبي بكر التّميمي «ت ١١٤٨/٥٤٢»:**
- الأنساب، طبعة مصورة، ليدن ١٩١٢.
* **الشّعراني، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي «ت ١٥٦٥/٩٧٣- ١٥٦٦»:**
- الطّبقات الكبرى، ط مصر بمطبعة محمّد علي صبيح، بلا تاريخ.
* **الطّبري، أبو جعفر محمّد بن جرير «ت ٩٢٢/٣١٠- ٩٢٣»:**
- تاريخ الأمم والملوك، ط مصر ١٣٢٣/١٩٠٧ وليدن ١٨٧٩- ١٩٠١.
* **الطّوسي، أبو جعفر محمّد بن الحسن: شيخ الطّائفة «ت ١٠٦٩/٤٦٠»:**
- الفهرست، كلكتة ١٨٥٥م.
* **العبّاسي، عبد الرّحمن بن أحمد «ت ١٥٦٩/٩٦٣»:**
- معاهد التّنصيص على شواهد التّلخيص، تحقيق: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، ط مصر ١٣٦٧/١٩٤٧.
* **القاضي التّنوخي: أبو علي الحسن بن علي بن محمّد «ت ١٠٠٤/٣٩٤»:**
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق مارجوليوث الجزء الأوّل، مصر ١٩٢١، والجزء الثّامن في مجلة المجمع العلمي بدمشق، المجلد العاشر، ١٩٣٠ «في حلقات» وقد نشره مؤخراً الأستاذ عبود الشّالجي المحامي في بيروت في ثمانية مجلدات.
* **القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان «ت ١٠٧٤/٤٦٥»:**
- الرّسالة القشيرية، مصر ١٢٨٤.
* **القفطي، علي بن سيف بن إبراهيم «ت ١٢٤٨/٦٤٦»:**
- إخبار الحكماء بأخبار الحكماء، ط مصر ١٣٢٦هـ
* **الكلاباذي، أبو بكر محمّد بن إسحق البخاري «ت ٩٩٠/٣٨٠»:**
- التّعرف لمذهب أهل التّصوف، تصحيح واهتمام: آرثر جون آربري، ط مصر ١٣٥٢/١٩٣٣.
* **الكليني، محمّد بن يعقوب «ت ٩٣٩/٣٢٩»:**
- أصول الكافي، طهران ١٢٧٨هـ
* **ماسينيون، لويس:**
- خطط الكوفة، ترجمة وتعليق تقي بن محمّد المصعبي، ط صيدا ١٩٣٩.
* **المحبي، محمّد أمين بن فضل الله بن محبّ الدّين الدّمشقي «ت ١٧٩٩/١١١١- ١٨٠٠»:**
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ط مصر ١٨٦٧/١٢٨٢- ١٨٦٨.
* **محمّد جابر عبد العال «الدّكتور»:**
- حركات الشّيعة المتطرفين، ط مصر ١٩٥٤.
* **المسعودي، أبو الحسن، علي بن الحسين الشّافعي «ت ٩٥٦/٣٤٦»:**
- مروج الذّهب، ط مصر ١٣٤٦هـ
* **المقدسي، أبو الفضل محمّد بن طاهر الحافظ «ت ١١١٣/٥٠٧»:**
- صفوة التّصوف، تحقيق: أحمد الشّرباصي، ط مصر ١٩٥٠.
* **الملطي، أبو الحسين محمّد بن أحمد بن عبد الرّحمن الشّافعي «ت ٩٨٧/٣٧٧»:**
- التّنبيه والرّد أهل الأهواء والبدع، تحقيق: محمّد زاهد الكوثري، ط مصر ١٣٦٩/١٩٤٩.
* **المناوي، محمّد عبد الرّؤوف بن تاج العارفين بن علي الحدّادي «ت ١٦٢٢/١٠٣١»:**
- الكواكب الدّرية في تراجم السّادة الصّوفية، طبع منه الجزء الأوّل في مصر ١٩٣٨ والثّاني في ١٩٦٣.
* **الوردي، علي حسين «الدّكتور»:**
- شخصية الفرد العراقي، ط بغداد ١٩٥١.
* **ولهاوزن، يوليوس:**
- الدّولة العربية وسقوطها، ترجمة الدّكتور يوسف العشّ، ط دمشق ١٩٥٦، وهناك طبعة أكثر إتقاناً من ترجمة د. عبد الهادي أبو ريدة.
* **ياقوت الحموي، أبو عبد الله بن عبد الله الرّومي «ت ١٢٢٩/٦٢٦»:**
- معجم البلدان، ط مصر ١٣٠٦هـ

ب- الكتب الفارسية:

* **الجامي، نور الدّين عبد الرّحمن بن أحمد «ت ١٥٠١/٨٩٨»:**
- نفحات الأنس، ط لكنو ١٣٢٣/١٩٠٥.
* **السّجستاني، أبو يعقوب:**
- تذكرة الأولياء، ط طهران ١٣٢١هـ وليدن ١٩٠٥.
* **قاسم غنى «الدّكتور»:**
- تاريخ تصوف در إيران، ط٢، طهران ١٣٣٠ش ١٩٥١م.
* **معصوم علي، الحاج.. الشّيرازي النّعمة اللهي «ت ١٩٢٦/١٣٤٤»:**
- طرائق الحقائق، ط طهران ١٣١٩.

❖❖❖